فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق)

﴿ مصر الاثنين غرة صفر سنة ١٣٢٤ — ٢٦ مارس (آذار) سنة ١٩٠٦ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الأزهر الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٢٥٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ •

بعد أن ذكرنا تعالى بالرسل وما كان من أقوامهم بعدهم من الاختلاف والاقتتال ، عاد الى أمرنا بالانفاق بأسلوب آخر كما تقدم التنبيه في تفسير الآية السابقة . هنالك يقول « من ذا الذي يقرض الله » وقد نبهنا على ما في هذا الخطاب من اللطف والبلاغة . وأزيد هنا ان هذا اللطف انما يفعل فعله ويبلغ نهاية تأثيره فيمن بلغ في الايمان الى عين اليقين ، وعرج في الكمال الى منازل الصديقين ، والطف وجدانه وشعوره ، وتألق ضياؤه ونوره ، وما كل المؤمنين يدرجون في هذه المدارج ، أو يرتقون على هذه المعارج ، فالأكثرون منهم يفعل في نفوسهم الترهيب ، مالا يفعل الترغيب ، فهم لا ينفقون في سبيل الله الا خوفا من عقابه ، أو طمعا في ثوابه ، وقد يعرض للضعفاء من هؤلاء الغرور بشفاعة تغني هنالك عن العمل ، أو فدية تقي صاحبها عاقبة ما كان عليه من الزلل ، فأمثال

هؤلاء يعالجون بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب «لا بيع» وما عطف عليه بالفتح والباقون بالرفع

قالوا ان المراد بالانفاق هنا الانفاق الواجب لأن الكلام يتضمن الوعيد على الترك وهو لا يكون الا على ترك الواجب وقال بعضهم بل يشتمل المندوب . ومن الواجب على أغنياء المسلمين اذا وقع الفساد في الامة وتوقفت ازالته على المال ان يبذلوه لدفع المفاسد الفاشية والغوائل الغاشية وحفظ المصالح العامة . أقول وفي قوله تعالى « مما رزقناكم » إشعار بأنه لا يطلب منهم الا بعض ما جعلهم مستخلفين فيه من رزقه ونعمه عليهم فأين هذا من الطلب بصيغة الاقراض ؟ .

كأنه يقول انا ما رزقناكم الرزق الحسن واستخلفناكم فيه الا وقد نقلناه من أيدي قوم أساؤا التصرف فحبسوا المال وأمسكوه عن المصالح والمنافع التي يرتقي بها شأن البشر بالتعاون على البر والتقوى فلا تكونوا مثلهم فتظلموا أنفسكم وقومكم ببخلكم فتكونوا كافرين بنعم الله تعالى عليكم لأنكم لم تضعوها في مواضعها ولذلك ختم الآية بقوله ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ وسيأتي بيانه

أما البيع والخلة والشفاعة فللمفسرين في بيان المراد بنفيها طريقان أحدهما ان المراد بالبيع الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة والمعاوضة والمراد بالخلة — وهي الصداقة والمحبة للقرابة وغيرها — لازمها وهو ما يكون وراءها من الكسب كالصلة والهدية والوصية والارث ، وبالشفاعة وهي معروفة لازمها في الكسب وهو ما يكون من اقطاعات الملوك والأمراء لبعض الناس وانما يكون غالبا بالتوسل اليهم والشفاعة عندهم فهذه الثلاث من طرائق جمع المال وسعة الرزق في الدنيا فهو يقول يا أيها الذين آمنوا بادروا الى الانفاق في سبيل الله مما تناله أيديكم وأنتم متمكنون منه ابتغاء مرضاة الله به قبل أن يأتي يوم الجزاء الذي لا تجدون فيه ما تتقربون به اليه مما يكسب ببيع وتجارة ، ولا مما ينال بخلة أو شفاعة ، فانه هو اليوم الذي يظهر فيه فقر العباد وكون الملك لله الواحد القهار ،

وأما الطريق الثاني فقد فسروا فيه البيع بالافتداء وجعلوا فيه الخلة والشفاعة على

ظاهرهما أي أنفقوا فان الانفاق في سبيل الخير والبر — وهي سبيل الله — هو الذي ينجيكم في ذلك اليوم الذي لا ينجي الأشحة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداء فيفتدوا منه أنفسهم ولا خلة يحمل فيها خليل شيئا من أوزار خليله أو يهبه شيئا من حسناته ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع في ارادة الله تعالى فيحولها عن مجازاة الكافر بالنعمة الباخل بالصدقة المستحق للمقت والعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيتها في الدنيا . وهذا هو الوجه الذي اختاره الاستاذ الامام فالآية بمعنى قوله تعالى في هذه السورة (٤٨ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ») فقوله لا تجزي نفس عن نفس شيئا بمعنى نفي الخلة هنا والعدل هو الفداء بالعوض وهو بمعنى البيع المنفي هنا . ومثلها آية ١٢٣ . والخطاب في تينك الآيتين لبني اسرائيل الذين كانوا في عصر التنزيل يقيسون أمور الدنيا على أمور الآخرة كما هو شأن الوثنيين فيظنون ان الانسان يمكن أن ينجو في الآخرة [illegible] النبيين والربانيين ، كدأب الأمراء والسلاطين ، [illegible] قاسد الأخلاق مناعا للخير معتديا أثيما . وقصارى هذا الاعتقاد أن سعادة الآخرة هي كالمعروف للعامة من سعادة الدنيا ليست جزاء للأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الصحيحة أي ليست أثرا لشيء في نفس الانسان وانما الغالب فيها أن تكون باسعاد غيره له وخير ضروب هذا الاسعاد وأعلاها ما يكون بالشفاعة عند الأمراء والسلاطين الذين يجعلون المرء من أعظم أرباب المال والجاه بكلمة يحملهم عليها الشافع . فمن كان يطلب في الآخرة منتهى السعادة فعليه ان يعتمد على أحد المقربين عند الله ليشفع له هنالك ولا يكلف نفسه عناء التهذيب وأعمال البر ، وقد بين الله تعالى لبني اسرائيل خطأهم في هذا الاعتقاد بما فيه عبرة لهذه الأمة ثم خاطب المؤمنين بذلك وأنذرهم ما أنذر به بني اسرائيل ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم يحرفون الكلام عن مواضعه كما فعل بعض المفسرين الذين زعموا أن قوله تعالى «والكافرون هم الظالمون» يدل على أن الكافرين بأصل الدين هم الذين لا ينفعهم يوم القيامة بيع ولا خلة ولا شفاعة . أي هذا النفي العام المستغرق لمنفعة الفداء والخلة

والشفاعة خاص بمن لا يسمي نفسه مسلماً وأما من قبل هذا الاسم فان الآية لا تتناولهم وان كان الخطاب فيها للذين آمنوا . وستعلم أن لفظ الكافرين لا يراد به هنا منكرو الالوهية والنبوة أو رافضو لقب الإسلام ، لان هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن ،

سبق القول في الشفاعة والجزاء والفداء في تفسير آية « واتقوا يوما » التي استشهدنا بها آنفا فلا نعيده . ولكن بدا لي أن أكتب جملة وجيزة في مسألة قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ، في التماس السعادة بالإسعاد والشفاعة ، فأقول تقدم ان القياس باطل على تقدير صدق ظنهم في سعادة الدنيا لأن الشفاعة المعروفة عند الملوك والحكام — وهي أكبر الشبهات في هذا المقام — مما يستحيل على الله عز وجل لأن الشفيع هنا يحدث في ذهن المشفوع عنده من الرأي والعلم بالمصلحة وفي قلبه من الميل والأثر مالم يكن فيهما فيعفو ويصفح ، أو يغضب ويعنف ، اما بهذه العاطفة وإما بتلك المعرفة ، لأن عمل الانسان في الدنيا يصدر عن أحد هذين المصدرين في النفس أو كليهما . وأما أفعال الله تعالى فهي تابعة لعلمه وحكمته وسائر صفاته القديمة التي يستحيل ان يطرأ عليها تغير ما . وهذه هي الشفاعة التي يتعلق بها السفهاء المغرورون وقد نفاها الله تعالى في هذه الآية وغيرها من الآيات وبين فيها وفي آيات أخرى كثيرة جدا أن سعادة الآخرة انما تنال بالاعمال الصالحة مع الايمان الصحيح المؤثر في الوجدان ، المصرف للارادة في الأعمال ،

وانما الذي أريد ان أقوله هنا هو ان السعادة الدنيوية الحقيقية التي يعرفها الشرع ، ويؤيده الاختبار والعقل ، هي في الأنفس لا في الآفاق . أعني أنها لا تنال باسعاد الاخلاء ، ولا بشفاعة الشفعاء ، انما العمدة فيها على اعتدال النفس في أخلاقها وأعمالها ، وصحة عقائدها ومعارفها ، ويتبع هذا في الغالب صحة الجسم ، وسهولة طرق الرزق ، والسلامة من الخرافات والأوهام ، التي تفتك بالعقول والاجسام ، ويظهر صدق هذا القول ظهورا بينا تقل فيه الشبهات في البلاد التي تساس بالعدل ويكون الحكام فيها مقيدين بأحكام الشريعة التي تكفلها الامة وانما تعرض الشبهات على صدقه في البلاد التي يحكم فيها السلاطين بارادتهم وأهوائهم

فيعطون من مال الامة ما أرادوا لمن أرادوا ، ويسلبون من أموال الرعية ما أحبوا فينفقونه على من أحبوا ، ويحكمون من شايعهم على ظلمهم ، في أنفس الخاضعين لحكمهم ، ولايشايعهم الا من كان فاسد الاخلاق سيء الاعمال يؤثر هواهم على رضوان الله – ان كان يفكر في رضوان الله أو يؤمن به – وعلى مصلحة الامة فما يتمتع به أعوان الظالمين من المال والجاه بالباطل ومايناله أشياعهم من منافع شفاعتهم كل ذلك في حكم الله وشرعه من الشقاء لامن السعادة . أفمل حكم هؤلاء الظالمين نقيس حكم رب العزة في يوم الدين ؟ أين نحن اذاً من قوله (٢١ : ٤٧ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » اذاخفي شقاء هؤلاء الملوك وأشياعهم على الجاهل في طور الاملاء والاستدراج فانه لايخفى على أهل العلم بسنن الله في الخلق ويعرف ذلك كل أحد يوم يأخذهم الله بظلمهم ، ويسلط عليهم من يسلب ملكهم ، وتشقى بهم الأمة التي رضيت بأحكامهم ، فلن يشبه الله تعالى بهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ولايصلحون « سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

أقول لا يبعد أن يكون في قوله تعالى بعد نفي الخلة والشفاعة « والكافرون هم الظالمون » تعريضا بهؤلاء الملوك الذين يمنحون بالشفاعة غير المستحق ويمنعون المستحق ويعاقبون بالبريء ويعفون عن المجرم ، والمراد بالكافرين الكافرون بالنعم بقرينة السياق وهم الذين لاينفقون في سبيل البر والخير وقد قصر الظلم عليهم كما أفادت الجملة المعرفة الطرفين تشنيعاً لحالهم كأن كل ظلم غير ظلمهم ضعيف لايعتد به لانهم ظلموا أنفسهم ودنسوها برذيلة البخل ومنع الحق وظلموا الفقراء والمساكين وغيرهم من الأصناف الذين فرضت لهم الصدقة بمنعهم مافرض الله لهم وظلموا الامة باهمال مصالحها المعبر عنها بسبيل الله . وإن أمة يؤدي أغنياؤها مافرض الله عليهم لفقرائها ولمصالحها العامة لاتهلك ولا تخزى ولا شيء أسرع في إهلاك الأمم من فشوّ البخل ومنع الحق في أفرادها

وأقول ان هذا الكفر والظلم مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها لظنهم أن جميع مافي القرآن من وعيد الكافرين يراد به الكافرون

بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء وهم الجاحدون للألوهية أو للنبوة أو لشيء مما جاء به النبي (ص) وعلم من الدين بالضرورة اجماعا وهذه الآية نفسها تبطل ظنهم وفي معناها آيات كثيرة . ثم أنهم يروون عن عطاء أنه قال الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون : يعني أنه لا يكاد يسلم امرؤ من ظلم لنفسه ولغيره فلو كان كل ظالم كافرا يهلك الناس . وقد فات صاحب هذا القول أن الظلم والكفر في القرآن يتواردان على المعنى الواحد فيطلقان تارة على ما يتعلق بالاعتقاد وتارة على ما يتعلق بالعمل ومنه الحكم بين الناس و يقابل هذه الآية في الجمع بينهما في المعنى قوله تعالى (٦: ٣٣ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ٥) ومن استعمال الظلم بمعنى الاعتقاد الباطل قوله تعالى (٣١ : ١٣ ان الشرك لظلم عظيم ٥) وقوله تعالى (٦: ٨٢ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ٥) فسر الظلم هنا في الحديث المرفوع المتفق عليه بالشرك وتلا صلى الله عليه وسلم الآية السابقة شاهدا . ومن استعمال الكفر بمعنى كفر [illegible] قوله تعالى (١٤: ٧ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد ٥) بل استعمل الكفر في القرآن بمعنى لغوي غير مذموم وذلك قوله تعالى (٥٧: ٢٠ كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الكفار هنا بمعنى الزراع سموا بذلك لأنهم يكفرون الحب بالتراب أي يغطونه و يسترونه والستر والتغطية هو المعنى العام لهذه المادة . ولم يستعمل الظلم في معنى محمود قط فالظلم في جملة معانيه شر من الكفر في جملة معانيه

ثم ان الله تعالى توعد على الظلم بالهلاك والعذاب كما توعد على الكفر سواء كانا بالمعنى الاول أو الثاني . قال تعالى (١٤: ٢٧ ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ٢٩ جهنم يصلونها وبئس القرار ٣٠ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار ٥) الوعيد الاول على كفر النعمة بعمل السيئات وترك الاعمال النافعة الصالحة والوعيد الثاني على الشرك وكلاهما من وعيد الآخرة . وقال تعالى (١٦ : ١١٢ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ١١٣ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب

وهم ظالمون ١١٤ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وأشكروا نعمة الله ان كنتم إياه تعبدون «) فالوعيد الاول دنيوي وهو على كفر النعمة . والثاني مثله وهو على الظلم في الاعتقاد . والآية الثالثة صريحة في أن الايمان الصحيح والتوحيد الخالص يقتضي شكر النعم وحسن العمل . ومن الوعيد على الظلم بعذاب الآخرة قوله تعالى (١٩ : ٧٦ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا «) أي في النار . وقوله (٤٢ : ٤٥ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم «) وأما وعيد الظالمين بعذاب الدنيا كهلاك الامة فكثير كقوله تعالى (١١ : ١٠٢ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد «)

اذا تدبرت هذه الآيات وأمثالها علمت أن ما نقل عن عطاء لا وجه له وأن الظالمين والكافرين في كتاب تعالى وفي حكمه سواء وأن الكفر والظلم في العمل أثر الكفر والظلم في الاعتقاد الا ما لا يسلم منه البشر من اللمم فقد يلم بالمؤمن الذنب بجهالة أو نسيان أو غلبة انفعال ثم يتوب عن قريب ولا يصر على الذنب وهو يعلم . وان ما نحن بصدده من الانفاق في سبيل الله ليس من اللمم فالمنع له لا يتفق مع الايمان الصحيح والدين الخالص من الشوائب . ويعجبني ما قاله البيضاوي في تفسير هذه الجملة قال « يريد والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم اذ وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه على غير وجهه . فوضع الكافرون موضعه تغليظا وتهديدا كقوله (٩٧:٣ ومن كفر) مكان : ومن لم يحج : وايذانا بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله (٤١ : ٦ وويل للمشركين ٧ الذين لا يؤتون الزكاة) اه وقد صدق في قوله ان منع الزكاة من صفات الكفار أي لا يصر عليها المؤمن فتكون صفة له

قال الاستاذ الامام ما معناه : لو فتشتم عن خفايا النفس لوجدتم أن العلة الصحيحة في منع الزكاة ونحوها من النفقات الواجبة هي أن حب المال أعلى في قلب المانع من حب الله تعالى وشأن المال أعظم في نفسه من حقوق الله عز وجل لان النفس تذعن دائما لما هو أرجح في شعورها نفعا ، وأعظم في وجدانها وقعا ، مهما تعارضت وجوه المنافع . ولو وزنتم جميع أنواع الظلم الذي يصدر من الانسان لوجدتم أرجحها ظلم الباخل بفضل ماله على ملهوف يغيثه ومضطر يكشف ضرورته أو على المصالح العامة التي

تقي أمته مصارع الهلكات ، أو ترفعها على غيرها درجات ، أو تسد الخروق التي حدثت في بناء الدين ، أو تزيل السدود والعقبات من طريق المسلمين ، فان هذا النوع من الظلم هو الذي لا يعذر صاحبه بوجه من وجوه العذر التي يتعلل بها سواه من ظالمي أنفسهم أو التي قد تكون اعذارا طبيعية فيمن لم يؤخذ بأدب الدين كثورة الغضب وسورة الشهوة العارضة

(قال) نرى كثيرا من أغنياء المسلمين عارفين بما عليه أمتهم من الجهل بأمور الدين ومصالح الدنيا وفساد الاخلاق وتقطع الروابط وتراخي الأواخي وما نشأ عن ذلك من هضم حقوقها وانتزاع منافعها من أيدي أبنائها ويعلمون أن اصلاحهم يتوقف على بذل شيء من أموالهم ينفق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة ثم هم يدعون الى بذل قليل من كثير ما يخزنونه في صناديق الحديد وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم وتأييد أهوائهم وحظوظهم فيبخلون بذلك ويرونه مغرما ثقيلا ولا يخافون بعد ذلك [illegible] سوء ولا يعده للباخلين بفضله . وأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا من المسلمين لأنه لا يتحرك في نفس الواحد منهم عرق ينبض في التألم لمصائب الاسلام وأهله فمن كان يرى ان ماله أفضل من دينه في الوجدان والعمل وهواه أرجح من رضوان الله فهو كافر حقيقة وان سمى نفسه مؤمنا فما ايمانه الا كايمان من نزل فيهم (٢:٨ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) فهناك يحكي عنهم دعوى الايمان ويحكم عليهم بعدمه لأن عملهم لا يشهد لايمانهم وههنا يعبر عنهم بالكافرين . ومن المستبعدان يطلق الله تعالى هذين الوصفين على من كان للايمان في قلبه بقية تبعثه على الانفاق في سبيله ايثارا لرضوانه وخشيته على الشهوات والحظوظ الباطلة وترجيحا لحبه على حب المال . وأزيد على هذه المعاني المتعلقة بجوهر الدين وما به النجاة في الآخرة التنبيه الى العبرة بشقاء الدنيا الذي يترتب على ترك الانفاق وأقول ماذا يبلغ وزن ايمان هؤلاء اذا وضع في ميزان القرآن وقوبل بمثل قوله في خطاب المؤمنين بعد الامتنان عليهم بأنه لم يسألهم انفاق جميع أموالهم منذرا اياهم بأن البخل قاض باهلاكهم واستبدال قوم آخرين بهم (٤٧:٣٧ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في

سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم

(٢٥٥) اللهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ. لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ *

بعد أن أمرنا تعالى بالانفاق في سبيله قبل ان يأتي يوم لا مال فيه ولا كسب، ولا ينجي من عقابه فيه شفاعة ولا فداء، انتقل كتاب القرآن الى تقرير أصول التوحيد والتنزيه التي تشعر متدبرها بعظم سلطانه تعالى ووجوب الشكر له والاذعان لأمره والوقوف عند حدوده وبذل المال في سبيله وتحول بينه وبين الغرور والاتكال على الشفاعات والمكفرات التي جرأت الناس على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم فقال

(الله لا اله الا هو الحي القيوم) فسر الجلال الإله بالمعبود بحق والحي بالدائم البقاء والقيوم بالمبالغ بالقيام بتدبير خلقه وقد استحسن الاستاذ الامام قوله في تفسير كلمة التوحيد وقال ان تفسيره لكلمة اله هو الشائع وهو انما يصح اذا حملنا العبادة على معناها الحقيقي وهو استعباد الروح واخضاعها لسلطان غيبي لا نحيط به علما، ولا نعرف له كنها، فهذا هو معنى التأليه في نفسه وكل ما أله البشر من جماد ونبات وحيوان وانسان فقد اعتقدوا فيه هذا السلطان الغيبي بالاستقلال أو بالتبع لاله آخر أقوى منه سلطانا، ومن ثم تعددت الآلهة المنتحلة وكل تعظيم واحترام ودعاء ونداء يصدر عن هذا الاعتقاد فهو عبادة حقيقية وان كان المعبود غير "اله" حقيقة أي ليس له هذا السلطان الذي اعتقده العابد له لا بالذات ولا بالتوسط الى ما هو أعظم منه . فالاله الحق هو الذي يعبد بحق وهو واحد والالهة التي تعبد بغير حق كثيرة جدا وهي غير آلهة في الحقيقة ولكن في الدعوى الباطلة التي يثيرها الوهم . ذلك ان الانسان اذا رأى أوسمع أو توهم ان شيئا غريبا

صدر عن موجود بغير علة معروفة ولا سبب مألوف يتوهم أنه او لم تكن له تلك السلطة العليا والقوة الغيبية لما صدر عنه ذلك - حتى ان الذين يعتقدون النفع ببعض الشجر والجماد كشجرة الحنفي ونعل الكلشني يعدون عابدين لهما حقيقة . (١)
والحاصل ان معنى «لا اله الا هو» ليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية على النفوس يبعثها على تعظيمه والخضوع له قهرا منها معتقدة ان بيده منح الخير ورفع الضر بتسخير الاسباب أو بابطال السنن الكونية الا الله تعالى وحده

قال الاستاذ الامام وأما الحي فهو ذو الحياة وهي مبدأ الشعور والادراك والحركة والنمو ومثل لذلك بالنبات والحيوان فان كلا منهما حي وان تفاوتت الحياة فيهما فكانت في النبات أكمل منها في الحيوان . قال والحياة بهذا المعنى مما ينزه الله تعالى عنه لأنه محال عليه ولذلك فسر مفسرنا «الحي» بالدائم البقاء وهو بعيد جدا لا يفهم من اللفظ مطلقا وانما معنى الحياة بالنسبة اليه سبحانه مبدأ العلم والقدرة أي الوصف يعقل معه الاتصاف بالعلم والارادة والقدرة . وهذا الوصف يبطل قول الماديين الذين يزعمون ان مبدأ الكون مادة تحرك بطبعها ولا شعور لها بنفسها ولا بمحركها وما ينشأ عنها من الافعال والآثار . أي ان هذا النظام والاحكام في الخلق من آثار المادة الميتة التي لا شعور لها ولا علم

اختصر الاستاذ الامام في الدرس فلم يزد في الدرس على نحو ما ذكرنا في حياة الله تعالى شيئا والمتكلمون يستدلون على حياة الله تعالى بالعقل من وجهين أحدهما انه تعالى عليم مريد قدير وهذه الصفات لا تعقل الا للحي وفيه أنه من قياس الغائب على الشاهد كما يقولون أو من قياس الواجب على الممكن . وثانيهما أن الحياة كمال وجودي وكل كمال لا يستلزم نقصا يستحيل على الواجب فهو واجب له . وهذا ما قدمه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد وقد قدم له مقدمة نفيسة في صفات الواجب قال رحمه الله تعالى :

(١) شجرة الحنفي أشجرة عند جامع السلطان الحنفي المعروف بمصر تزار وتلتمس منها المنافع ودفع المضار. ونعل الكلشني نعل قديمة في تكية الشيخ الكلشني بمصر يتبرك بها ويقال ان الماء الذي يشرب عنها ينفع للتداوي من العشق

« معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

« كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ماهو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها . مايتجلى للنفس من مُثُل الوجود لاينحصر وأكمل مثال في أي مرتبة ماكان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وانفي النوع كان أدلّ على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

« فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على ان تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنوانا على انها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

« وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فيستتبع من الصفات الوجودية مايلائم تلك المرتبة العلية وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث مايحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن ان يكون له وجب ان يثبت له وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لااضطراب فيه يعدّ من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب ان يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة مايمكن أن يكون له

« فما يجب ان يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك ان الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع مايتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي ويمكن ان يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن ان يتصف به وجب ان يثبت له فواجب الوجود حيّ وان باينت حياته حياة الممكنات فان ماهو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ماهو أكمل منه وجودا وقد تقدم انه أعلى الوجودات وأكملها فيه

« والواجب هو واهب الوجود ومايتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها؟

فالحياة له كما أنه مصدرها » اه

أقول وهذا تحقيق دقيق لاتجد مثله لغيرهذا الامام العارف والحكيم المحقق ولا يعقله الا أولو الالباب وقد كنت كتبت في كتاب العقائد الذي ألفته باقتراحه رحمه الله تعالى على وجه يليق بمعارف هذا العصر ويفيد طلاب علومه كلاما في حياة الله تعالى قريبا من الافهام واطلع عليه فاعجبه وإنني أحب ايراده هنا لأني لم أر في كتب التفسير ولا في كتب الكلام كلاما ممتعا في هذا المقام. وهو وارد بأسلوب السؤال من تلميذ مبتدىء في المدارس والجواب من أخيه وهو عالم عصري طبيب نعبر عنه بالشاب ومن أبيه وهو عالم صوفي نعبر عنه بالشيخ وهذا نصه باختصارما

قال التلميذ : تنبت الشجرة صغيرة ثم تنمو حتى تكون في زمن قريب أضعاف ماكانت فمن أين تجيء هذه الزيادة وكيف تدخل في بنيتها وتتفرق فتأخذ الساق منها حظا والفروع حظا وكذلك الورق والثمر

الشاب : ان هذه الزيادة التي تدخل في بنية النبات بعضها من الارض وبعضها من الهواء . والنبات جسم حي فهو بصفة الحياة يأخذ من عناصر الأرض والهواء ما يصلح لغذائه فيتغذى به كما يتغذى الحيوان بما يأكله ويشربه وينمو بذلك كما ينمو الحيوان

التلميذ : انا لانرى في الأرض ولا في الهواء شيئا من مادة النبات ولا من صفاته كاللون والطعم والرائحة

الشاب: انه يأخذ منها العناصر البسيطة فيأخذ من الهواء الاكسجين والنيتروجين (الازوت) وكذلك الكربون وبعض الاملاح التي توجد في الهواء عادة وان لم تكن جزءا منه . ويأخذ من الأرض مايناسبه من عناصرها الكثيرة كالبوتاسا والفصفور والحديد والجير والاملاح ويكون مما يأخذه من ذلك غذاءه بعمل كيماوي منتظم يعجز عن مثله أعلم علماء الكيمياء. وقد علمت أن جميع هذه الصور المختلفة الاشكال والصفات أنما اختلف بعضها عن بعض باختلاف التركيب الكيماوي وعمل الطبيعة حتى ان مادة السكر هي عين المادة التي يتكون منها الحنظل،

والماس والفحم الحجري من عنصر واحد

الشيخ : ان النبات لاحياة فيه ولو كان يعمل عمله الذي ذكرت في معنى النمو وكيفيته بما تقتضيه صفة الحياة التي أثبتها له لكان عالما بعمله ومختارا فيه ولم يرد بهذا نقل ، ولا أثبته عقل ، فنموّ النبات انما يكون بمحض قدرة الله تعالى

الشاب : لادليل على أن النبات علما ولا على أنه لاعلم له فهو في عمله كأعضاء الانسان وغيره من الحيوان التي تعمل أعمالا منتظمة لاشعور للانسان بها ولا هي صادرة عن علمه وتدبيره كأعمال المعدة والكبد في هضم الطعام فليس عندنا دليل على أن للمعدة علما خاصا ولا على انه لاعلم لها ولكننا نعلم أنها عضو حي بحياة صاحبه فاذا أبين منه ثم وضع فيه الطعام فانه لايعمل ذلك العمل . وكون كل شيء بقدرة الله لا يمنع أن يكون لكل شيء سبب فالله تعالى حكيم لايعمل شيئا الا بنظام (٦٧ : ٣ ماترى في خلق الرحمن من تفاوت)

التلميذ : من أين تكون هذه الحياة النباتية للنبات والحياة الحيوانية للحيوان في هل المادة التي تتغذى بها النبات حية فيأخذ منها حياته ؟

الشاب : كلا إن مواد التغذية ليست حية بنفسها ألا ترى ان الانسان لايأكل شيئا من الحيوان الابعد إماتته بنحو الذبح والطبخ ولا يأكل نباتا الابعد ازالة حياته النباتية ولو بالقطع والمضغ فقط ؟ وكذلك النبات . ولكن في النواة التي تتولد منها الشجرة والبيضة التي يتولد منها الحيوان حياة كامنة مستعدة للنموّ بالتغذية على ما نشاهد في الكون . وهذه الحياة مجهولة الكنه والمبدإ حتى اليوم وأمرها أخفى من أمر المادة في كنهها ومبدئها

الشيخ : اذا كنتم في علمكم هذا أرجعتم جميع العناصر التي تألفت منها مادة الكون الى شيء واحد عرف أمره ولم تعرف حقيقته - كما قلت في مبحث الوحدانية - فما بالكم تقفون في حياة بعض المواد كالنبات والحيوان وتقولون لا نعرف مبدأ حياته وحقيقتها وتقفون عند هذا الحد ولا تقولون ان الذي صدرت عن ذاته جميع الذوات هو الحي القيوم الذي صدرت عن حياته كل حياة ؟

الشاب : لاشك ان الوجود الواجب القديم هو حي كما انه قيوم فاذا كان

معنى قيوميته انه قائم بنفسه وكل شيء قائم به فكذلك هو حيٌّ بذاته وكل ماعداه من الأحياء فهو حي به أي انه يستمد حياته منه لأن هذه الأحياء كلها من نبات وحيوان هي حادثة والحادث هو ماكان وجوده من غيره لا من ذاته. فالحياة أمر وجودي بل هي أعلى مراتب الوجود فهل يقول عاقل : ان تلك الذات الأزلية قد صدرت عنها الاشياء كلها بلا حياة ثم ان بعضها أحدث لنفسه حياة ؟ هذه سخافة لاتخطر في بال عاقل فالانسان أرقى الأحياء على هذه الأرض لأن من آثر حياته العلم بالكليات والإرادة والتدبير والنظام وهو عاجز عن هبة الحياة لنفسه ولغيره فغيره من الاحياء أحق بالعجز

التلميذ : اذا كانت الحياة التي أثرها العلم والارادة والتدبير والنظام هي أرقى مراتب الحياة وهي حياة الانسان ألا يلزم من ذلك مشابهة حياة الانسان لحياة الله تعالى لأن هذه الخصائص هي لحياة الله تعالى أيضاً

الشيخ : اعلم يا بني أن ذات الله تعالى لا تشبه الذوات، وصفاته لاتشبه الصفات، فاذا طرأت عليك الشبهة في أمر الحياة فقط لأن حقيقتها مجهولة فتأمل الفرق بين الحياتين—ان حياة الله تعالى ذاتية وحياة الانسان من الله تعالى، ان حياة الله تعالى أزلية وحياة الانسان حادثة، ان حياة الله تعالى لاتفارقه وحياة الانسان تفارقه حين يموت، ان حياة الله تعالى هي التي تفيض الحياة على كل حيّ وحياة الانسان خاصة به - وكذلك العلم والتدبير والارادة والنظام كل ذلك ناقص في الانسان والله تعالى منزه عن النقص واليه ينتهي الكمال المطلق في ذاته وصفاته : اه المراد نقله من تلك العقيدة

وهذا الذي قلناه في بيان معنى «الحي القيوم» يجلي لمن وعاه ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذا هو اسم الله الاعظم أو قال: أعظم أسماء الله الحي القيوم وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «اسم الله الاعظم في هاتين الآيتين (٢: ١٦٣ وإلهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم » وفاتحة آل عمران ٣: ١ الم الله لا إله الا هو الحي القيوم) فالآية الأولى تثبت له تعالى وحدانية الالوهية مع الرحمة الشاملة والثانية تثبت له مع الوحدانية

الحياة التي تشعر بكمال الوجود وكمال الايجاد بافاضة الحياة على الاحياء والقيومية وهي كونه قائما بنفسه أي ثابتا بذاته وكون غيره قائما به أي ثابتا وموجودا بايجاده اياه وحفظه لوجوده بامداده بما يحفظ به الوجود من الاسباب . ومن معاني هذه القيومية القيام بالقسط كما قال تعالى (٣: ١٨ شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) والقسط هنا هو العدل العام في سننه الكونية وشرائعه . ومنها القيام على كل نفس بما كسبت كما قال (١٣: ٣٣ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) .

وقد قصر المفسرون في بيان معنى (الحيّ) وقاربوا في معنى (القيوم) قال مجاهد هو القائم على كل شيء . وقال الربيع هو قيم كل شيء يكلؤه ويرزقه ويحفظه وقال قتادة القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . وقال ابن الأعرابي من رواة اللغة معناه المدبر وقال الزجاج نحو قول قتادة . قال في شرح القاموس بعد نقل قول قتادة وقال غيره هو القائم بنفسه مطلقا لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده الا به . قلت ولذا قالوا فيه انه اسم الله الأعظم اه والمادة تعطي هذه المعاني كلها . والغزالي يبدئ هذا المعنى في الاحياء ويعيده لاسيما في كتاب الشكر وكتاب التوكل ومما قاله في الأول وقد قسم الناس الى أقسام في شهودهم نعم الله وشكره قال :

« النظر الثاني نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فهو قائم به . ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين الموجِد . وليس في الموجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك فان . واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذي الجلال والاكرام » اه

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السنة النعاس وهو فتور يتقدم النوم قال ابن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

والنوم معروف لكل أحد وان اختلف تعريفه من جهة بيان سببه قال البيضاوي «والنوم حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس رأسا» وهو قول الاطباء المتقدمين وللمتأخرين أقوال أخرى مختلفة سنشير الى بعضها. قيل كان الظاهر ان ينفي النوم أولا والسنة بعده على طريق الترقي واجيب بأن ما في النظم جاء على حسب الترتيب الطبيعي في الوجود فنفى ما يعرض أولا ثم ما يتبعه. وقد قال: لا تأخذه: دون لا تعرض له أو لا تطرأ عليه مراعاة للواقع في الوجود فان السنة والنوم يأخذان الحيوان عن نفسه أخذا ويستوليان عليه استيلاء. وقال الاستاذ الامام: ان ماذكر في النظم الكريم ترق في نفي هذا النقص ومن قال بعدم الترقي فقد غفل عن معنى الاخذ وهو الغلب والاستيلاء ومن لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى فذكر النوم بعد السنة ترق من نفي الاضعف الى نفي الاقوى: والجملة تأكيد لما قبلها مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أكمل وجه فان من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة وضعيف القيام بنفسه أو على غيره

أقول ويظهر هذا على رأي المتأخرين في سبب أكمل الظهور وان كان بديهيا في نفسه فانهم يقولون ان النوم عبارة عن بطلان عمل المخ بسبب ما تولده الحركة من السموم الغازية المؤثرة في العصب وقيل بسبب ما تفرزه الموصلات العصبية من الماء الكثير بالفعل الكيماوي وقت العمل فكثرة هذا الماء تضعف قابلية التأثر فيها فتحدث فيها الفتور فيكون النوم ويستمر الى ان يتبخر ذلك الماء وعند ذلك تتنبه الاعصاب ويرجع اليها تأثرها وادراكها. فسبب النوم أمر جسماني محض والله تعالى منزه عن صفات الاجسام وعوارضها

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فهم ملكه وعبيده مقهورون لسنته خاضعون لمشيئته وهو وحده المصرّف لشؤونهم والحافظ لوجودهم ﴿ من ذا الذي يشفع عنده ﴾ منهم فيحمله على ترك مقتضى ما مضت به سنته، وقضت به حكمته، وأوعدت به شريعته، من تعذيب من دسى نفسه بالعقائد الباطلة، ودنسها بالأخلاق السافلة،

وأفسد في الارض ، وأعرض عن السنة والفرض ، من ذا الذي يقدم على هذا من عبيده ﴿ الا بإذنه ﴾ والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هـذا الاستثناء نصا في ان الاذن سيقع وانما هو كقوله (١١: ١٠٥ يوم يأتي لا تكلّم نفس الا بإذنه) فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والملك في ذلك اليوم (٨١: ١٩ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) ولقد قال البيضاوي في تفسير الجملة « بيان لكبرياء شأنه وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه ويستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلا عن ان يعاوقه عنادا أو مناصبة » . وقال الاستاذ الامام ما محصله ان في هذا الاستثناء قطعا لأمل الشافعين والمتكلين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة ببيان انفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جراءة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون اذنه وأذنه غير معروف لأحد من خلقه ثم قال

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس أو أمور الدنيا التي خلفوها وأمور الآخرة التي يستقبلونها أو ما يدركون وما يجهلون . وهذا دليل على نفي الشفاعة بالمعنى المعروف وبيان ذلك انه لما كان عالما بكل شيء فعله العباد في الماضي وما هو حاضر بين أيديهم وما يستقبلهم وكان ما يجازيهم به مبنيا على هـذا العلم كانت الشفاعة المعهودة مما يستحيل عليه تعالى لأنها لا تتحقق الا باعلام الشفيع المشفوع عنده من أمر المشفوع له وما يستحقه مالم يكن يعلم . مثال ذلك اذا اراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان ينفي رجلا من المدينة ولا يمكن ان يريد ذلك وهو عادل الا اذا كان يعتقد المصلحة فيه بأن يكون الرجل مفسدا ضارًّا بالناس . فاذا شفع له شافع ولم يبين لعمر مالم يكن يعلم من أن المصلحة في بقائه دون نفيه فانه لا يقبل شفاعته . هذا اذا كانت الشفاعة عند سلطان عادل كعمر واما اذا كانت عنـد سلطان جائر فيجوز ان تقبل و يترك نفي المفسد الضارّ بالناس لاجل مرضاة الشفيع كأن يكون من أعوان السلطان وبطانته الذين يؤثر مرضاتهم على المصلحة العامة لأنهم يؤثرون هواه على المصلحة الحقيقية . وفي هذه الحال يظن الغافل ان الشفاعة ليس فيها اعلام المشفوع عنده بما لم يكن يعلم ولو

هذه وقلنا ان ماورد فى الحديث يأتي فيه الخلاف بين السلف والخلف في المتشابهات فنفوض معنى ذلك اليه تعالى أو نحمله على الدعاء الذي يفعل الله تعالى عقبه ماسبق فى علمه الازلي ان سيفعله مع القطع بان الشافع لم يغير شيئا من علمه ولم يحدث تأثيرا ما في إرادته تعالى وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع الفعل عقب دعائه أقول وبهذا فسر الشفاعة شيخ الاسلام ابن تيمية (رح) (وراجع تفسير آية ٤٨ واتقوا يوما الخ)

﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ قال الاستاذ الامام السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الالهي وبذلك قال بعض المفسرين وأهل اللغة — ويقال كرس الرجل كفرح أي كثر علمه وازدحم على قلبه — أي ان علمه تعالى محيط بما يعلمون مما عبر عنه بقوله « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات فماذا يمكن ان يعلمه الشفعاء ، وقيل هو العرش واختاره مفسرنا (الجلال) وهو [illegible] وقيل انه تمثيل لملك الله تعالى واختاره القفال والزمخشري والآية تدل على انه [illegible] يحيط بالسماوات والأرض ولا يتوقف التسليم بها على تعيينه والقول بانه علم أو ملك أو جسم كثيف أو لطيف أي فان كان هو العلم الالهي فالأمر ظاهر وان كان خلقا آخر فهو من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نبحث عن حقيقته ولا نتكلم فيه بالرأي كما قال كثيرون انه هو الفلك الثامن المكوكب من الافلاك التسعة التي كان يقول بها فلاسفة اليونان ومقلدوهم فذلك من القول على الله بدون علم وهو من أمهات الكبائر

﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ أي لا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ولا يشق عليه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ فيتعالى بذاته ان يكون شأنه كشأن البشر في حفظ أموالهم ، ويتنزه بعظمته عن الاحتياج الى من يعلمه بحقيقة أحوالهم ، أو يستنزله الى مالم يكن يريد من مجازاتهم على أعمالهم ، وأقول ان جملة الآية تملأ القلب بعظمة الله وجلاله وكماله حتى لا يبقى فيه موضع للغرور بالشفعاء الذين يعظمهم المغرورون تعظيما خياليا غير معقول حتى ينسون انهم بالنسبة الى الله تعالى عبيد مربوبون ، أو عباد مكرمون ، (٢١ : ٢٧ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٢٨ يعلم ما بين

أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الالمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ فمن تدبر هذه الآيات وأمثالها مما ورد في علم الله وعظمته وانفراده بالسلطة لاسيما في ذلك اليوم وهو يوم الدين فان عظمته تعالى لاتدع في نفسه غرورا بل يوقن بان لاسبيل الى السعادة في الآخرة الابمرضاة الله تعالى في الدنيا فمن لم يكن مرضيا لله تعالى لايتجرأ أحد على الشفاعة له كانوت في الآية الكريمة آنفا، واتل أيضاً قوله تعالى عن ذلك اليوم (٢٠: ١٠٨) ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لاعوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ١٠٩ يومئذ لاتنفع الشفاعة الامن أذن له الرحمن ورضي له قولا ١١٠ يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما ١١١ وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ١١٢ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ١١٣ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وأنك لتجد المسلمين يقرءون هذه الآيات ولايحدث لاحد منهم ذكرا يصرفه عن حمل الظلم لنفسه ولغيره والاعتماد في النجاة على ما لا الله من يعمل الصالحات وهو مؤمن بل ترى الجماهير يعرضون عن هذا الذكر ويرجون النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة بالشفاعات فقط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لاتجري على اليبس

قال الاستاذ الامام ماملخصه مبسوطا: جاءت الآية ومافي معناها إنذار للمسلمين ان يكونوا كأهل الكتاب الذين يتكلون على نجاتهم على شفاعة سلفهم فأوقعهم ذلك في ترك المبالاة بالدين ولكن المسلمين اتبعوا بعد ذلك سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع وسقوط في الاتكال على الشفاعة وما يترتب عليه من التهاون بالدين كما ترى .— هذه القلوب التي خويت من ذكر الله وخلت من خشيته للجهل بما يجب من معرفته وهي على خطر الهلاك الأبدي — وهذه النفوس المنغمسة في أقذار الشهوات ، المسترسلة في فعل المنكرات ، وهي تشعر بأنها على شفير جهنم — تريد ان تتلهى عما يصمها عن سماع نذير الشرع بعقيدة الفطرة التي أفسدتها الجهالات والأهواء، كيلا تتألم بما ينغص عليها لذاتها، أو يحتم عليها طاعة ربها ، فلا ترى ألهية

تضيفها الى الدين، ويرتضيه لها رؤساؤه الرسميين ، الا كلمة الشفاعة التي تزعم أنها تعظم بها النبيين والصديقين ، وان جعلتها بمعنى وثني يخلّ بعظمة رب العالمين ، وكل من اغترّ بذلك فشيطانه هو الذي وسوس له وعدّه في الغي ، وأنها لنفوس ما عرفت عظمة الله ولا شعرت بالحياء منه في حياتها ولاظهر في أعمالها أثر محبته، ولا احترام دينه وشريعته ، وما أثر الايمان به والحب له والرجاء بفضله الا أخذ دينه بقوة وجد وآيته بذل المال والروح في إعلاء كلمته ، وتأييد شريعته ، لا الامتنان عليه وعلى رسوله بقبول لقب الاسلام، وتعظيمه بالقول والخيال ، دون القلوب والأعمال، والقرآن شاهد عدل، (٨٦: ٣ ١ ، انه لقول فصل ١٤ وما هو بالهزل)

باب العقائد

« مسألة القدر وفعل العبد بقدرته »

جاء في شرح عقيدة السفاريني بعد ذكر مذهب القدرية والجبرية وهم الضالون في الافراط والتفريط ما نصه

وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يفرطوا افراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصي الله، وهؤلاء على مذهبين مذهب الاشعري ومن وافقه من الخلف ومذهب سلف الأمة وأئمة السنة فمذهب أهل السنة كافة ان جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقعة بقضاء الله وقدره لاخالق سواه فافعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها هذا القدر باتفاق أهل السنة ثم ان الاشعري ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسبا ومعناه انه قادر على فعله وان كانت قدرته لا تأثير لها في ذلك كما مر قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه هذا قول الاشعري ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبائع ويقولون ان الله تعالى فعل عندها لا بها ويقولون ان قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل ويقول الاشعري ان الله

فاعل فعل العبد وان عمل العبد ليس فعلا للعبد بل كسبا له قال شيخ الاسلام وهذا قول من ينكر الاسباب والقوى التي في الاجسام وينكر تأثير القدرة التي للعبد التي يكون بها الفعل ويقول انه لا أثر لقدرة العبد أصلا في فعله لكن الاشعري يثبت للعبد قدرة محدثة واختيارا ويقول ان الفعل كسب للعبد لكنه يقول لا تأثير لقدرة العبد في ايجاد المقدور وهو مقام دقيق حتى قال بعضهم ان هذا الكسب الذي أثبته الاشعري غير معقول قال حتى قال جمهور العقلاء ثلاثة أشياء لا حقيقة لها طفرة النظام وأحوال أبي هاشم وكسب الاشعري وذلك انه يلزم ان لا يكون فرق بين القادر والعاجز اذ مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة فان فعل العبد يقارن حياته وعلمه وارادته وغير ذلك من صفاته فاذا لم يكن للقدرة تأثير الا مجرد الاقتران فلا فرق بين القدرة وغيرها ومن هذه الطائفة من يقول ان قدرة العبد مؤثرة في صفة الفعل لا في أصله كما يقوله القاضي أبو بكر الباقلاني من أئمة متكلمة الاشعرية ومن وافقهم فانه أثبت تأثيرا بدون خلق الرب فلزم ان يكون بعض الحوادث لم يخلقه الله وان جعل ذلك معلقا بخلق الرب فلا فرق بين الاصل والصفة قبل ومذهب الاشعري يقرب في هذه المسئلة من مذهب الجبرية الجهمية فانه يحكى عن الجهم بن صفوان وغلاة اتباعه أنهم سلبوا العبد قدرته واختياره حتى قال بعضهم ان حركته كحركة الاشجار بالرياح كما تقدم قال شيخ الاسلام ابن تيمية ان الجهم كان يقول لا أثر لحركة العبد أصلا في فعله وكان يثبت مشيئة الله تعالى وينكر أن يكون له حكمة ورحمة وينكر ان يكون للعبد فعل أو قدرة مؤثرة قال وقد حكي عنه انه كان يخرج الى الجذمى ويقول أرحم الراحمين يفعل هذا ؟ انكارا لأن يكون له تعالى رحمة يتصف بها سبحانه زعما منه انه ليس الا مشيئة محضة لا اختصاص لها بحكمة بل يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح

ومذهب سلف الأمة وائمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون ان العبد فاعل لفعله حقيقة وان له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية ولا ينكرون تأثير الاسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل

من ان الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون بأن لها أثرا لفظا ومعنى لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الاسباب في مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب ومع انه خالق السبب فلابد للسبب من سبب آخر يشاركه ولابد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره الامع خلق الله له بأن يخلق الله السبب الآخر ويزيل الموانع وقال شيخ الاسلام في موضع آخر الاعمال والاقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد بمعنى انها قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه وهي من الله بمعنى انه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملا له وكسبا كما يخلق المسببات بأسبابها فهي من الله مخلوقة له ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه كما اذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة وهذا الزرع من الارض بمعنى انه حدث منها ومن الله بمعنى انه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض فإن الحوادث تضاف الى خالقها باعتبار والى أسبابها باعتبار كما قال تعالى (٢٨ : ١٥ هذا من عمل الشيطان) وقال (١٨ : ٦٣ وما انسانيه الا الشيطان) مع قوله (٤ : ٧٨ كل من عند الله) واخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون وقال في موضع آخر ان ائمة أهل السنة يقولون ان الله خالق افعال العباد كما ان الله خالق كل شيء وانه تعالى خالق الاشياء بالاسباب وانه تعالى خلق للعبد قدرة بها يكون فعله وان العبد فاعل لفعله حقيقة فقولهم في خلق فعل العبد بارادته وقدرته كقولهم في خلق سائر الحوادث باسبابها وقد دلت الدلائل اليقينية على ان كل حادث فالله خالقه وفعل العبد من جملة الحوادث وكل ممكن يقبل الوجود والعدم فان شاء الله كان وان لم يشأ لم يكن وفعل العبد من جملة الممكنات قال وجمهور المسلمين وجمهور طوائفهم على هذا القول الوسط الذي ليس هو قول المعتزلة ولا قول جهم بن صفوان واتباعه الجبرية فمن قال ان شيأ من الحوادث أفعال الملائكة والجن والانس لم يخلقها الله تعالى فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع السلف والادلة العقلية ولهذا قال بعض السلف من قال ان كلام الآدميين وأفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من يقول

ان سماء الله وارضه غير مخلوقة والحاصل ان مذهب السلف ومحققي أهل السنة ان الله تعالى خلق قدرة العبد وارادته وفعله وان العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله والله سبحانه جعله فاعلا له محدثا له قال تعالى (وما تشاؤن الا أن يشاء الله) فأثبت مشيئة العبد وأخبر انها لا تكون الا بمشيئة الله تعالى وهذا صريح قول أهل السنة في اثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون الا بمشيئة الرب قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وهذا قول جمهور أهل السنة من جميع الطوائف وهو قول كثير من أصحاب الاشعري كأبي اسحق الاسفرايني وامام الحرمين وغيرهما فيقولون العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة واختيار وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والاسباب كما دل على ذلك الشرع والعقل قال تعالى (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقال (فأحيا به الارض بعد موتها) وقال (ويهدي به كثيراً) وهذا كثير في الكتاب والسنة يخبر تعالى انه يحدث الحوادث بالاسباب وكذلك دل الكتاب والسنة على اثبات القوى والطبائع للحيوان وغيره كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال (هو أشد منهم قوة) وقال في الجمادات (وأخرجت الارض أثقالها) وقال (واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وقال (تدمر كل شيء بأمر ربها) وقال (وأرسلنا الرياح لواقح ـ وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله ـ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي) وقال تعالى (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وهذا في القرآن كثير جدا

وقال السعد التفتازاني في شرح المقاصد بعد ما نقل الخلاف ملخصا ما نصه:

ثم المشهور فيما بين القوم المذكور في كتبهم ان مذهب امام الحرمين ان فعل العبد واقع بقدرته وارادته ايجابا كما هو رأي الحكماء مع قول الامام في الارشاد اتفق ائمة السلف قبل ظهور البدع والاهواء على ان الخالق هو الله ولا خالق سواه وان الحوادث كلها حدثت بقدرة الله من غير فرق بين ما يتعلق قدرة العبد به وبين ما لا يتعلق: قال العلامة ابراهيم الكوراني في شرح منظومة شيخه

الشيخ محمد المقدسي القشاشي ما نصه : مذهب الشيخ امام الحرمين الذي تفرد به فيما قيل عن الاصحاب يعني الاشعرية من ان أصل فعل العبد واقع منه بتأثير قدرته باذن الله قال وهو مذكور في غير الارشاد وهو آخر قوليه كما نقله عنه البقي فلا يقدح مخالفته ما في الارشاد وبقية كتبه اني وصلت الى التفتازاني وغيره لما هو المنقول عنه في غير الارشاد وبقية كتبه في هذا الفن المرجوع عنها في هذه المسئلة قال الكوراني وهذا الكتاب الذي ذكر فيه آخر قوليه هو كتابه المترجم بالنظامية فيما وقفت على كلامه منقولا عنه بلفظه في كتاب (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) للعلامة شمس الدين ابن القيم في الباب السابع عشر منه ولفظه : اضطربت آراء اتباع الاشعري في الكسب اضطرابا عظيما واختلفت عباراتهم فيه اختلافا كثيرا وقد ذكر ذلك كله أبو القاسم سلمان بن ناصر الانصاري في شرح الارشاد ثم ساق عن تلميذ امام الحرمين شارح الارشاد هذا الانصاري كلاما فيه ان امام الحرمين ذكر لنفسه مذهبا ذكره في الكتاب المترجم بالنظامية وانفرد به عن الاصحاب ثم قال صاحب كتاب شفاء العليل في آخر كلام شارح كتاب الارشاد المذكور

قلت الذي قاله الامام في النظامية أقرب الى الحق مما قاله الاشعري وابن الباقلاني ومن تابعهما ونحن نذكر كلامه بلفظه قال يعني امام الحرمين : قد تقرر عند كل حاظ بعقله مترق عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد ان الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم وداعيهم اليها ومثيبهم ومعاقبهم عليها وتبين بالنصوص التي لا تتعرض بالتأويلات انه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم ومكنهم من التوصل الى امتثال الامر والانكفاف عن مواقع الزجر ولو ذهبت أتلو الآي المتضمنة لهذه المعاني لطال المرام ولا حاجة الى ذلك مع قطع اللبيب المنصف به ومن نظر في كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث والزواجر عن المعاصي الموبقات وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات ثم تلفت على الوعد والوعيد وما يجب عقده من تصديق المرسلين في الانباء وقول الله لهم لم تعدينم وعصيتم وأبيتم وقد أرخيت لكم الطول وفسحت لكم المهل وأرسلت الرسل وأوضحت المحجة لئلا يكون للناس

على الله حجة" وأحاط بذلك كله ثم استراب في ان أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم فهو مصاب في عقله أو مستقر على تقليده مصمم على جهله ففي المصير الى انه لا أثر لقدرة العبد في فعله قطع طلبات الشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون فان زعم من لم يوفق لمنهج الرشاد انه لا أثر لقدرة العبد في مقدوره أصلا واذا طولب بتعلق طلب الله بفعل العبد تحريما وفرضا ذهب في الجواب طولا وعرضا وقال لله ان يفعل مايشاء ولا يتعرض للاعتراض عليه المتعرضون «لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون» قيل له ليس لما جئت به حاصل كلمة حق أريد بها باطل نعم يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد ولكن يتقدس عن الخلف ونقيض الصدق وقد فهمنا بضرورات المعقول من الشرع المنقول انه عزت قدرته طالب عباده بما أخبر انهم ممكنون من الوفاء به فلم يكلفهم الا مبلغ الطاقة والوسع في موارد الشرع ومن زعم انه لا أثر للقدرة الحادثة في مقدورها كما لا أثر للعلم في معلومه فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بان يثبت في نفسه ألوانا وادراكات وهذا خروج عن حد الاعتدال الى التزام الباطل والمحال وفيه ابطال الشرائع ورد ماجاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام فاذا لزم المصير الى القول بأن العبد خالق أعماله فانه فيه الخروج عما درج عليه السلف الائمة واقتحام ورطات الضلال ولا سبيل الى المصير الى الوقوع في ان فعل العبد بقدرته الحادثة والقدرة القديمة فان الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادرين اذ الواحد لا ينقسم فان وقع بقدرة الله استقل بها ويسقط أثر القدرة الحادثة ويستحيل ان يقع بعضه بقدرة الله فان الفعل الواحد لا بعض له وهذه مهواة لا يسلم من غوائلها الا مرشد موفق اذ المرء بين ان يدعي الاستبداد وبين ان يخرج نفسه عن كونه مطالبا بالشرائع وفيه ابطال دعوة المرسلين وبين ان يثبت نفسه شريكا لله في ايجاد الفعل الواحد وهذه الاقسام بجملتها باطلة ولا ينجي من هذا الملتطم ذكر اسم محض ولقب مجرد من غير تحصيل معنى وذلك ان قائلا لو قال ان العبد يكتسب وأثر قدرته الاكتساب والرب تعالى مخترع خالق لما العبد مكتسب له قيل له فما الكسب وما معناه وأديرت الاقسام المذكورة على هذا القائل فلا يجد عنه مهربا — ثم قال يعني امام الحرمين — فنقول

قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بهـا قطعا لكنـه يضاف الى الله سبحانه تقديرا وخلقا فانه وقع بفعل الله وهو القدرة وليست القدرة فعلا للعبد وانما هي صفة له وهي ملك لله تعالى وخلق له فاذا كان موقع الفعل خلقا لله فالواقع به مضاف خلقا الى الله تعالى وتقديرا وقد ملك الله العبد اختيارا يصرف به القدرة فاذا أوقع بالقدرة شيأ آل الواقع الى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله ولو اهتدت الى هذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف ولكنهم ادعوا استبدادا بالاختراع وانفرادا بالخلق والابتداع فضلوا وأضلوا (قال) وتبين تميزنا عنهم بتفريع المذهبين فانا لما أضفنا فعل العبد الى تقدير الاله قلنا أحدث الله القدرة في العبد على أقدار أحاط بها علمه وهيأ اسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد ان يفعل فأحدث فيه دواعي مستحثة وخيرة وإرادة وعلم ان الافعال ستقع على قدر معلوم فوقعت بالقدرة التي اخترعها للعبد على ما علم وأراد فاختيارهم واتصافهم بالاقتدار والقدرة خلق الله ابتداء ومقدورها مضاف اليه مشيئة وعلما وقضاء وخلقا وفعلا من حيث انه نتيجة ما انفرد بخلقه وهو القدرة ولو لم يُرد وقوع مقدورها لما أقدره عليه ولما هيأ أسباب وقوعه ومن هدي لهـذا استمر له الحق المبين فالعبد فاعل مختار مطالب مأمور منهي وفعله تقدير لله مراد له مخلوق مقضي (قال) ونحن نضرب في ذلك مثلا شرعيا يستروح اليـه الناظر في ذلك فنقول العبد لا يملك أن يتصرف في مال سيده ولو استبد بالتصرف فيه لم ينفذ تصرفه فان أذنه في بيع ماله فباعه نفذ والبيع في التحقيق معزو الى السيد من حيث ان سببه اذنه ولولا اذنه لم ينفذ التصرف ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى ويوبخ على المخالفة ويعاقب فهذا والله الحق الذي لا غطاء دونه ولا امراء فيه لمن وعاه حق وعيه (وأما الفرقة الضالة) فانهم اعتقدوا انفراد العبـد بالخلق ثم صاروا اذا أنه عصى فقد انفرد بخلق فعله والرب كاره أفكان العبد على هـذا الرأي الفاسد مزاحما لربه في التدبير موقعا ما أراد إيقاعه شاء الرب أو كره؟

الى هنا كلام امام الحرمين في النظامية بلفظه فيما نقله عنه كذلك الامام المحقق ابن القيم في شفاء العليل ونقله العلامة ابراهيم الكوراني الأشعري في شرح منظومة شيخه

القشاشي ولايخفى على من نظر في كلامه تصريحه في غير موضع بان العبد له تأثير في فعله بالاختيار ومراده ان العبد ليس مستقلا في ايقاع أفعاله بمجردمشيئته وان لم توافق مشيئة الحق بل انما تؤثر قدرته اذا شاء الله ذلك ومكنه منه وهو المعبر عنه بالاذن قال الكوراني اختار هذا شيخنا وألف فيه سابقا رسالة سماها الانتصار لامام الحرمين فيما شنع فيه عليه بعض النظار ثم اختصرها وزاد فيها نقولا وقف عليها فيما بعد وسماه اختصار الانتصار ثم وقفنا على كتاب شفاء العليل لابن القيم المنقول فيه كلام إمام الحرمين في النظامية فأعجبه ذلك وأمر بإلحاقه بآخر اختصار الانتصار ليعلم الواقف عليه ان النقل عنه بالتأثير بالاذن صحيح خلافا لمن أنكر ثبوته عنه من المتأخرين قال الكوراني وقال شيخنا في شرح المواهب اللدنية على قوله تعالى « ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى » من غزوة بدر واعتقاد جماعة ان المراد بالآية سلب فعل النبي صلى الله عليه وسلم عنه واضافته الى الله وجعلهم ذلك أصلا في الجبر وابطال نسبة الافعال الى العباد فبسط الكلام في اثبات الكسب على طريقة امام الحرمين وتأييده بدلائل الكتاب والسنة الى ان نقل عنه كلامه المذكور في النظامية ثم قال وفي شفاء العليل قال الاشعري رحمه الله وابن الباقلاني الواقع بالقدرة الحادثة هو كون الفعل كسبا دون كونه موجودا أو محدثا فكونه كسبا وصف للوجود بمثابة كونه معلوما انتهى وفهموا من ذلك ان لا تأثير لقدرة العبد يعني عند الاشعري في مقدوره كما لا تأثير للعلم في معلومه فقالوا في قدرة العبد انها مصاحبة غير مؤثرة قصدا الى التوسط قال وتفسير كلام الاشعري بهذا ميل عن التوسط الذي هو الحق وانما التوسط المحصل للكسب النافي لطرفي الافراط والتفريط من الاستقلال والجبر هو القول بان لقدرة العبد تأثيرا ولكن باذن الله لا على الاستقلال فاللائق ان يفسر كلام الاشعري بما ينزل على هذا التوسط وكلامه قابل للتأويل لانه ليس نصا في عدم التأثير فان أوله يدل على ان الكسب واقع بالقدرة الحادثة والوقوع فرع التأثير ثم آخر كلامه يعطي ان لا تأثير لها حيث شبهه بتعلق العلم بالمعلوم على ان الاشعري نص في عامة كتبه على ما يدل على التأثير على ما نقله عنه صاحب شفاء العليل ثم حط القشاشي كلامه على ان

الكسب عند الاشعري تحصيل العبد بقدرته المؤثرة باذن الله ماتعلقت به مشيئته
الموافقة لمشيئة الله وتقرير كلامه على هذا الوجه موافق لما قال امام الحرمين من
التوسط الذي يتحصل به مؤدى الامر والنهي من المكلف بلا تكلف قال
الكوراني ثم رأيت من نصوص الشيخ الاشعري رحمه الله في كتابه الابانة
الذي هو آخر تصانيفه ـ كما ذكره الامام شيخ الاسلام ابن تيمية وهو أي كتاب
الابانة المعول عليه في المعتقد من بين كتبه كما دل عليه كلام الحافظ ابن عساكر ـ
مايدل على انه أي الاشعري انما نفى الاستقلال لا أصل التأثير باذن الله وتمكينه
وحينئذ يكون امام الحرمين موافقا للاشعري في التحقيق المعتمد عنده في الابانة
ثم قال الكوراني وهذا قول أبي اسحق الاسفرايني قال وهو الموافق لظاهر
الكتاب والسنة قال وقول أبي اسحق الاسفرايني وامام الحرمين هو الذي اختاره
حجة الاسلام الغزالي فانه قال في كتاب الشكر من الاحياء «ولا قادر الا الملك
الجبار» وقال في جواهر القرآن «[illegible] لا فعل ولا قدرة ولا علم الا للواحد
الحق وانما لغيره القدرة التي أعطاه الخ» وقال في الاحياء «وما هو قادر عليه يعني
الانسان من نفسه أو غيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق
قدرته وأسبابه والممكن لمن ذلك ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص
من الحيوانات لاهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه» قال الكوراني فهو قائل
ان للعبد قدرة مؤثرة بتمكين الله لا مستقلا وهذا التمكين هو المعبر عنه بالاذن
في قوله تعالى «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله» انتهى ملخصا وانما ذكرت
لك أقاويل هؤلاء مع ان عمدة المعتقد عندنا الغير المنتقد في عقدنا مذهب
السلف المقرر على الوجه المرضي المحرر لتعلم ان محققي الاشاعرة لهم موافقة على حقيقة
مذهب السلف والاغضاء عما يشنعه الخلف وبالله التوفيق اه

(المنار)

أوردنا هذا الكلام هنا للذين لا يعرفون من كتب العقائد الا كتب متأخري
الاشعرية القائلة بأن لا تأثير للاسباب في مسبباتها ولا قدرة للانسان في عمله وأن
الله يخلق المسبب عند السبب لا به وأن العبد كاسب لعمله في الظاهر مجبور عليه في الحقيقة

وتمزواعدا الى الاشعري وكبار انصاره ليعلموا أن كلام الاشعري ليس نصا في ذلك وأن اكبر أنصار مذهبه وهم امام الحرمين والاسفرايني والغزالي قالوا بخلاف ذلك فلم يبق الا الباقلاني عليه فهل نحصر السنة فيه دون السلف وسائر أئمة الاشعرية

باب أصول الفقه

الناسخ والمنسوخ

للدكتور محمد توفيق أفندي صدقي الطبيب بسجن طره

أجملت الكلام في هذا الموضوع حينما كتبت مقالات (الدين في نظر العقل الصحيح) لضيق الوقت وكثرة الاشغال وقد رأيت الآن أن أعود اليه بإيضاح يزيل ما هذر به السفهاء من الناس الطاعنين في الاسلام · الذين يعدون النسخ في القرآن دليلا على كونه من عند غير الله وكونه لم يحفظ كاملا كما نعتقد وليعلم هؤلاء المساكين أن ما يطعنون به ليس الا حصى لا تزحزح طودا من مكانه. ولولا غفلة المنتمين الى هذا الدين لما وجد القوم حصاة واحدة يرمونه بها ظنا منهم أنها تؤلمه.

القول بالنسخ في القرآن ليس من عقائد الاسلام البتة وإنما هو مذهب في التفسير نشأ غالبا في العصر الأول ان صحت الروايات الآحادية الواردة في هذا الباب، والذين قالوا به منهم إنما أخذوه من ظاهر قوله تعالى ٢:١٠٥ «ما ننسخ من آية أو ننسها» لآية فكان اذا عرض لواحد منهم اشتباه في فهم بعض آيات القرآن التي بينها شبه خلاف تمسك بهذا القول لرفع ما عرض له · وليس فهم بعض الصحابة حجة في التفسير والا لما خالف جمهور المفسرين ابن عباس وهو أعلمهم بالتفسير في كثير من المسائل ولما خالف بعضهم بعضا في نفس هذه المسألة حتى كان بعضهم كأبي مثلا يقول اني لا أدع شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد بذلك أنه لا يترك حكما بدعوى أنه منسوخ وكان عمر ينكر عليه ذلك كما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس أن عمر قال: أقرؤنا أبي وأقضانا علي وانا لندع من قول أبي وذلك أن أبيا يقول لا أدع شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه

وسلم وقد قال الله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها » :

ولو كانت هذه المسألة من العقائد الاسلامية الواجبة لما أنكرها بعض أئمة المسلمين المتقدمين والمتأخرين كأبي مسلم الاصفهاني وغيره . على أن المتمسكين بها ليس عندهم دليل يعتد به على صحة مذهبهم وسنفسر ان شاء الله الآيات التي زعموا أنها تفيدهم في تأييد رأيهم وحسبنا أن القرآن لم يقل في موضع ما أن هذه الآية ناسخة أو منسوخة بأخرى . ولا يحل لنا أن نترك العمل بشيء من كتاب الله تعالى لفهم فاهم أولوهم واهم وأيضا فليس عندهم دليل قطعي على تقدم المنسوخ وتأخر الناسخ في كثير من المواضع بل ان بعض الآيات التي ادعوا أنها منسوخة نجدها في القرآن متأخرة عن الناسخة كآية العدة في سورة البقرة مثلا ولما وجدوا ذلك زعموا ولا دليل لهم أن الآية المشار اليها نزلت أولا ولم يبالوا بأن ذلك ينافي حسن ترتيب الآيات في سورها وان كان هذا الترتيب توقيفيا بالاجماع . اننا لا ندري لمَ كانت بعض الآيات منسوخة عندهم ولم تكن ناسخة لغيرها؟ فكيف يمكننا تمييز ما يجب العمل به وما يجب تركه مع أنه لم يرد في الكتاب ما يرشدهم الى ذلك؟ وهل يعقل أن الله يترك عباده يتخبطون في أمور دينهم مع أنه يقول في شأن القرآن (٤٢ : ٥٢ جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) . فاذا كان مذهب النسخ صحيحا أفليس من الابهام وعدم البيان أن يكون القرآن خاليا من التنبيه على ما نسخ وعلى مالم ينسخ ؟ أو ليس من أعجب العجب أن لا يوجد عند القائلين به حديث واحد متفق عليه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر نصا قاطعا صريحا على أن الآية أو الآيات الفلانية نسخت بالآيات الفلانية!!! وما بالهم لم يتفقوا على عدد مخصوص من الآيات؟ ولمَ يتركون دعواهم النسخ في آية اذا تحققوا أن لا تعارض بينها وبين غيرها ؟!

غلا الناس في هذه المسئلة غلوًّا حتى انهم أرادوا أن يجعلوها فنا من الفنون التي تؤلف فيها الكتب ولاجل أن يجعلوا أبواب هذا الفن كاملة زعموا أن النسخ على ثلاثة أضرب (١) مانسخ لفظه وحكمه معا (٢) مانسخ لفظه فقط (٣) مانسخ حكمه فقط . ثم التمسوا لكل ضرب شواهد ولو بالتمحل البعيد والخروج عن أساليب البلاغة بل اللغة حتى ليخيل للناظر اليها أن القرآن ضاع منه شيء . ففتح باب واسع

لكل شيطان يريد أن يؤيد دعوى باطلة له لا يوافقه عليها القرآن فيختلق ماشاء أن يختلق ويزعم أنه كان قرآنا ونسخ ثم يلبس لباس الصالحين والرواة الثقاة ليقبل المحدثون روايته . وقد اعترف بعض من تاب بذلك ولولا اعترافه ماعرف . فما يدرينا أن بعض الملحدين أو بعض الفرق الغلاة ظهر بالمظهر الذي غر الناس حتى صدقوه في دعاويه . فهل بعد ذلك نثق بأي رواية لم تتواتر في مثل هذه المسائل حتى يجرنا ذلك الى الطعن في المتواتر نفسه . فالخطة المثلى في تحقيق الحق وازهاق الباطل عند العقلاء أن لا يعتمدوا الا على ماتواتر ويرفضوا كل ماخالفه والا افتقدوا التمييز ولما أمكنهم التصديق بشيء مما الا اذا أدركوه بحواسهم مع أنا مضطرون للتصديق بأشياء كثيرة لم نحسها .

اضطرب مبدأ القائلين بالنسخ كثيرا . فبعد أن قالوا لانسخ الا في الامر والنهي نجدهم يسلمون بالروايات الدالة على نسخ اللفظ مع أن جلها ليس الا أخبارا كما في رواية (لو كان لابن آدم واديا لأحب أن يكون له الثاني) الى آخره . ولو عقل هؤلاء القوم لوجدوا ألا مناسبة بين أسلوبها وأسلوب القرآن مطلقا بحيث لو عرضت والقرآن على ذي ذوق وهو أجنبي عن المسلمين لحكم أن قائلهما لا يمكن أن يكون واحدا بدون تردد اللهم الا فيما كان مسروقا منه كرواية « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون » على أنها لا تخلو من تكلف وتنافر بين الجملتين يدل على ان التأليف مصنوع

لهذا كله ذهب جميع المحققين من أئمة المسلمين الى أن أمثال هذه الروايات الآحادية لا يثبت بها قرآن ولا ينفى بها ولذلك لايعتد أحد بالروايات الدالة على أن الفاتحة والمعوذتين ليست من كتاب الله ولو سلمنا جدلا أن أحد الصحابة أنكرها فلا يعتد بشذوذه ومخالفته جميع من عداه منهم

نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فبلغه الناس وحفظوه عنه وأمر بكتابته دون سواه فكتبه له كتبة الوحي وكتبه غيرهم لأنفسهم على ماتيسر لهم في ذلك الوقت من جلد أو ورق أو عظم أو جريد أو خشب الى غير ذلك مما أمكنهم الحصول عليه . ولم يمت عليه السلام الا بعد أن كانت جميع السور مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في

السطور وبعد أن سمعوها منه مرات عديدة في الصلوات والخطب وغيرها وسمعها هو أيضا منهم . ارتقت الاحوال بعد وفاته وتيسر لهم كتابة جميعه على الورق فنقلوا ذلك ونسخوا منه مصاحف بلهجات العرب المختلفة . ولما ولي عثمان الخلافة أمر بالاقتصار على لغة قريش خوفا من وقوع الاختلاف في القرآن فكتبت المصاحف بهذه اللغة الواحدة بعد التحري والتدقيق فيما كتب قبل ذلك وبعد السماع من الحفاظ وكان ذلك بعد وفاة النبي بسنين قليلة ثم أرسلت المصاحف الى الآفاق التي استعمرتها الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم الحافظون للقرآن في صدورهم وفي صحفهم فوافقوا جميعا على استعمال هذه المصاحف . هذا ومن عرف طباع العرب وشدتها تحقق أنه لو وجد في مصاحف عثمان عيب لرفضوها ولأثيرت حروب وأهرقت دماء ولقتل عثمان لهذا السبب ولوجدت مصاحف مختلفة بين المسلمين اليوم ولكن لم يحصل شيء من ذلك مطلقا . فدل ذلك على أن هذه المصاحف هي عين ما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخذت تلك الكتابة تحسن شيئا فشيئا حتى وصلت الى الحالة الحاضرة من [illegible] قديمها وحديثها شرقيها وغربيها الا [illegible] ويتلون على هذه المصاحف آلاف الألوف من الحفظة في جميع الاقطار وفي جميع الازمنة . هذا هو تاريخ القرآن كما تواترت به الاخبار وما خالف ذلك من الاخبار الآحادية يجب رفضه ولا يعبأ به . وهذا هو الكتاب الذي نؤمن به ونعتقد أنه لا ناسخ فيه ولا منسوخ بل جميع آياته محكمة يجب العمل بها جميعها . ومن شاء أن يعارض في ذلك فعليه بالدليل . فليس هو ككتب الأديان الاخرى حرمت قراءتها على العامة ولم يحفظها الخاصة في صدورهم فلعبت بها الاهواء ، وتعددت في شأنها الآراء ،

لو كان الاسلام دين عجائب وغرائب كغيره مما بني على حكايات رويت بالروايات الشفاهية ولم تكتب الا بعد زمن وقوعها بمدة تكفي لضياعها أو الخلط فيها أو ادخال الدخلاء فيها ما ليس منها وإن كتبت لم يكن عند أهلها فن تحقيق الأسانيد وتحريها الذي لم يعرف الا عند المسلمين — لو كان الاسلام كهذه الأديان لحق لأهله الخوف من الطعن في أمثال هذه الروايات . ولكن

الاسلام - ولله الحمد - دين عقل وعلم أسس على كتاب كتب في عهد نبيه وحفظ في الصدور . فما بال أهله قلدوا غيرهم وخافوا من رفض أمثال هذه الأحاديث الآحادية مع أنه لو رفضت جميعها بما فيها الاحاديث الدالة على صحة الاسلام كأحاديث المعجزات الكثيرة وغيرها لا الموجبة الطعن فيه فقط لما ضرنا ذلك شيئا . فما بالنا اليوم أخذنا نسب كل من فتح هذا الباب ونكفره مع أنه لم ينكر أصلا من أصول الدين . فليتق الله عقلاء المسلمين .

كم من دخيل دخل في رواة أحاديث جميع الاديان والملل ؟ كم من حق ضاع بين باطل ؟ كم من موضوعات رفضها المحققون ؟ ألم يخرج البخاري رضي الله عنه أحاديثه وهي أربعة آلاف من ست مئة ألف حديث ؟ وهو شخص واحد يجوز عليه الخطأ لأنه ليس معصوما . فما هذا الجمود يا أمة محمد (ص) ودينكم أرقى من ذلك . ولولا أنتم لما وجد سفيه قط يضربنا به .

ولنرجع الى تتميم موضوعنا فنقول أما ما تمسك به هؤلاء الجامدون من القرآن الشريف على صحة مذهبهم فهو لا يفيدهم شيئا ولذلك نذكر هنا أشهر الآيات التي تمسكوا بها ونتكلم عليها واحدة فواحدة بما يشفي العليل ويروي الغليل :

(الآية الأولى) آية السيف وهي في سورة التوبة ٩ : ٥ (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية) فقالوا أنها نسخت جميع الآيات الآمرة بالعفو والصبر والصفح ولو تأملوا قليلا لوجدوا أن أكثر هذه الايات مشعرا بالتوقيت والغاية الى أجل كقوله تعالى (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره . فتول عنهم حتى حين . واصبر حتى يحكم الله . فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) الى غير ذلك من الايات التي تشعر بأن ترك المدافعة والمقاتلة كان موقتا . ومن القواعد الاصولية المعروفة أنه اذا ورد حكم مطلق وآخر مقيد في موضوع واحد حمل المطلق على المقيد . وعليه فالآيات المطلقة الواردة في هذا الموضوع يجب أن تقيد بالتوقيت مثلا قوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل . وقوله فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) كل منهما موقت أي ان الأمر بالصفح والاعراض لا الى غير أجل ولم يكن دائما فلما تحقق المسلمون بعد طول

الاختبار ان الصفح والاحسان لايجدي مع العدو نفعا ولايزيده الاطغيانا واسترسالا في الاذى الى درجة أن يسفك دماءهم ويغتصب أموالهم وأعراضهم ويخرجهم من ديارهم ولا يراعي لهم عهدا ولا يرقب فيهم إلاً ولاذمة . لما تحققوا ذلك وقووا أمروا أن يردوه عن غيه ويكسروا شوكته وينتقموا منه مع مراعاة العدل في كل ذلك . والخلاصة أن الصبر على الاذى والاحسان الى المسيء مأمور بهما في القرآن كثيرا ولكن لافي كل وقت ولا الى غير حد ونفضلان على الأخذ بالمثل الااذا جرا الى الوبال وسوء الحال . ومن فهم ذلك علم أن لاتعارض بين آيات القرآن في هذا الشأن فان لكل مقام مقالا . وعليه فلا معنى للقول بالناسخ والمنسوخ هنا لاختلاف الحالين وقد أدرك ذلك كثير من علماء المسلمين كالسيوطي وغيره . هذا ولما كان الواجب علينا اقتفاء أثر النبي في كل شيء وجب علينا أن تكون خطته خطتنا فنجرب أولا اللين فان لم ينجح فالشدة . الااذا خفنا أن يضيع اللين من [illegible] فقد وصانا الله تعالى بالحذر من العدو كثيرا فقال (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) ولذلك لم يهمل النبي صلى الله عليه وسلم ولاخلفاؤه الراشدون أحدا ممن ناصبهم العداوة وتربص بهم الفرص حتى يسلبهم ماحصلوا عليه من القوة ويتمكن من الفتك بهم

(الثانية) مسألة القبلة — لايخفى على ناظر في الكتاب العزيز أن هذه المسألة ليس فيها نسخ للقرآن وانما هي نسخ لحكم لاندري هل فعله النبي عليه السلام باجتهاده أم بأمر من الله تعالى غير القرآن فان الوحي غير محصور في القرآن فقد قال الله تعالى ٥٣ : ١٠ (فأوحى الى عبده ما أوحى) أي في ليلة المعراج ولاندري جميع ما أوحاه الله اليه في تلك الليلة سوى مابلغنا اياه من أمر فرض الصلوات الخمس . وأيضا فقد يوحى اليه بشيء في منامه كرؤياه دخول المسجد الحرام المذكورة في قوله تعالى ٤٨ : ٢٧ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) الآية فقد كانت هذه الرؤيا وحيا اليه قبل أن ينزل فيها القرآن وهي تشبه رؤيا ابراهيم أن يذبح ابنه فقد كانت وحيا له أيضاً في منامه . اذاً ليس كل وحي قرآنا وانما القرآن مايكن

تشبيه بما يسمى عندنا الآن بالأوامر الرسمية التحريرية وغيره بالشفهية غير الرسمية · وبناء على ذلك لم يحصل في القرآن نسخ في هذه المسألة مطلقا

(الثالثة) قوله تعالى (٨ : ٦٥ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وان يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ٦٦ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » » قال أهل النسخ إن الآية الثانية ناسخة للاولى وفاتهم أن ذلك يوجب القول بأن الحكمين الواردين في سياق واحد متناقضان ولا مخلص لها من ذلك بدعوى أنهما نزلا في وقتين مختلفين لأن القرآن لم يفصل ذلك ولم يفصل بينهما · وأيضاً يلزم على قولهم أن المؤمنين في أول أمرهم كانوا أقوياء جدا حتى أن الواحد منهم يغلب عشرة ولما كثروا وانتصروا مرات عديدة ضعفوا وصار الواحد [illegible] هذا الغلب ، ولزم أيضاً أن الله على قولهم لم يكن [illegible] أن الواحد منهم [illegible] أن يغلب العشرة إلا بعد أن جرب ذلك ولما تحقق أبطل هذا الحكم وأبدله بالآخر · وجوابهم عن هذه المسألة ركيك

واعلم أن المعنى الصحيح هو أن الآية الأولى وعد من الله لهم بنصر الواحد على العشرة ولما كان هذا الوعد يتضمن الأمر بالثبات أمام العدو ولو بلغ عدده عشرة أمثالهم فكأن واحدا منهم شق عليه ذلك فقال : هل نمتثل هذا الأمر الآن ؟ فأجاب تعالى على سبيل الاستئناف البياني (الآن خفف الله عنكم) أي لم يرد الآن أن يوجب عليكم امتثاله ثم قال (وعلم أن فيكم ضعفاً) وهذا كالتعليل لعدم ايجاب الثبات المذكور في الوقت الحاضر لعلمه أنكم ضعفاء لا تقوون عليه ثم أمرهم بالثبات أمام مثليهم فقط موقتا الى أن يقووا · فكأنه قال يعدكم الله بالنصر على عدوكم الآن وان كان مثليكم مرتين ويعدكم بالنصر في الاستقبال ولو كان عدده عشرة أمثالكم وانما قدم الوعد الاخير على الأول لأنه أبلغ في الحض على القتال فأتى به بعد قوله (حرض المؤمنين) وقدم لفظ

(الآن) للدلالة على القصر فكأنه قال (الآن فقط) يتساهل معكم ولا يوجب هذا الأمر الشاق عليكم ولكنه في المستقبل يحتم عليكم الاستماتة في القتال ·

(الرابعة) قوله تعالى ٥٨ : ١٢ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم * ١٣ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون *) والمعنى أن الله ندبهم الى تقديم الصدقات للفقراء قبل مناجاة الرسول في شأن من شؤونهم والدليل على أن ذلك ندب قوله (ذلك خير لكم وأطهر) وكذا ما سيأتي بعد ثم قال (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) أي انه من كان هذا شأنهم لا يؤاخذهم على ترك هذا الأمر إذا لم يجدوا ما يتصدقون به وأما من تركه بلا عذر فالله يلومه ويوبخه ثم قال (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) أي أخفتم وهو استفهام بمعنى النفي كقوله (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه) أي لا تخافوا الفقر من تقديم الصدقات [illegible] الآخرة (فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة) أي ان تهاونتم ولم تفعلوها والحال أن الله تاب عليكم بان لم يجعلها أمرا محتما واجبا يعاقبكم عليه ان تركتموه فلا تهاونوا في الواجبات كاقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واطاعة الله والرسول فان الله لا يسامحكم في ذلك · وأيضا فان قيامكم بهذه الواجبات يكفر عنكم تهاونكم في المندوبات فلا يلومكم الله على تركها على حد قوله في آية أخرى ٤ : ٣٠ (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)

(الخامسة) قوله تعالى (٢ : ١٠٦ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ١٠٧ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ١٠٨ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الانبياء من الدلائل على نبوتهم والمعنى ما ننسخ من آية قيمها دليلا على نبوة نبي من الانبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها

أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فاننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع واثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه. وهو رد على من يقترح معجزات مخصوصة . وهذا التفسير هو المناسب لقوله (إن الله على كل شيء قدير) الى قوله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) لآية

(السادسة) قوله تعالى (١٦: ١٠١ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) والمعنى أننا اذا بدلنا حكم آية من آيات كتب الله السابقة بحكم آخر والله أعلم بما يفعل وبما له من الحكم العظيمة قالوا انما أنت كذاب لأن الله لا ينسخ شرائعنا وذلك لجهلهم بما يترتب عليه من المنافع (قل نزله) أي القرآن (روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) بتبيين حكم ما نسخ من الشرائع السابقة (وهدى) لهم في أعمالهم (وبشرى للمسلمين) بأنهم على الحق الثابت وأنهم مقيمون شرائع الله وحملة دينه للخلق جميعا ، وقد سميت شرائع التوراة في القرآن بالآيات في قوله ٥: ٢٤ انا نزلنا التوراة — الى قوله — ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) والذي يدلك على صحة تفسيرنا ورود بعض الاحكام الموسوية وبيان أنها منسوخة بعد الآية التي نحن بصدد تفسيرها بقليل حيث قال ١٦: ١١٤ (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون ١١٥ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم ١١٦ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ») الى أن قال (١٢٣ انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

هذا واذا سلمنا أن المراد بقوله (وإذا بدلنا آية مكان آية) آيات القرآن نفسه فلم لا يكون المراد : اننا اذا بدلنا آية في موضوع مّا بآية أخرى عند تكرر هذا الموضوع في سور مختلفة كقصص القرآن ومحاجته للعرب وغيرهم توهموا أن

أن فيها تناقضا وتضاربا؟ وقالوا انما أنت مفتر كذاب والا لما خالفت نفسك في عباراتك مرات عديدة وذلك ناشئ عن جهلهم وعدم تدبرهم في آياته (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) فلا تناقض فيه ولا اختلاف (ليثبت الذين آمنوا بما فيه من العبر والحكم التي ان كررت واختلفت عباراتها فلا اختلاف في معانيها وهذا يشبه قوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ثم قال (وهدى وبشرى للمسلمين) أي هدى لهم بارشاداته المتضمنة في عباراته المختلفة وبشرى لهم بأن الله سينصرهم على عدوهم كما نصر أهل الحق من الأمم السابقة. فعلى هذين التفسيرين السابقين لا يبقى لمدعي النسخ حجة مّا في القرآن

ومن تأمل في هذه الآية وجد أنها لا تنطبق على رأيهم . فما معنى قوله (ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) على في النسخ الذي يدعونه تثبيت أم زعزعة وفي أي موضع من القرآن نص على ما نسخ وبين حكمه؟ وما معنى الهداية والبشرى للمسلمين هنا مع أنه [illegible] الحيرة والضلال كما قلنا وليس فيها شيء من البشرى [illegible] هذا الكلام [illegible]

فهذه أعظم حجج القائلين بالنسخ وقد علمت مما كتبناه أنه لم ينهض لهم شيء منها فبأي شيء بعد ذلك يتمسكون؟ فيا قوم كفاكم كفاكم ما جنيتم هذا الدين المتين فقد نفرتم الناس منه وصرتم أكبر الصادين عنه، هداكم الله سواء الصراط . انتهى

(المنار) أن مسألة النسخ مثار شبهات كثيرة يوردها قسوس النصارى ومجادلوهم على القرآن وقد أطال القول فيها مؤلف كتاب الهداية طعنا في الاسلام والغرض الاول للدكتور محمد توفيق أفندي صدقي من هذه المقالة رد هذه الشبهات على أنه يعتقد صحة ما ذهب اليه ما نعو النسخ في القرآن كأبي مسلم المفسر الشهير . وان لنا كلاما آخر في هذه المسألة سننشره في جزء آخر وانه ليسرنا ان نرى من المتخرجين في المدارس العالية من يبحث في أصول الدين ويعنى بفهم القرآن والاهتداء به وان خالف جمهور الفقهاء والاصوليين في بعض المسائل التي لا يعد أحد من المتخالفين فيها كافرا ونعتقد اعتقادا مؤيدا بالاختبار أن اقتناع المتخرجين في تلك المدارس بالدين لا يكون الا بهذه الطريقة فلذلك نقبل منهم مباحثهم واسئلتهم مع الاغتباط والسرور، ولله عاقبة الامور

باب المقالات

تطور الامم وانتقالها

من حال الى حال

ان الاجسام الحية خلايا تتغذى وتزدوج وتلد وتموت فيخلفها نسلها فيكون بها الجسم حافظا لحياته فاذا ضعفت الحياة في الجسم قل توالد الخلايا وكثر فيها الموت حتى يهلك الجسم فتتصل أجزاؤه بجسم آخر قوي الحياة فتكون غذاء له كما ترى في النبات والحيوان

ان الحياة مصدر النظام فهي بعمل خلايا الجسم الجزئية تكون خلقا كاملا منتظما وان كان لاشعور لكل خلية في ازدواجها بمثلها وانتاجها أن عملها ينضم الى عمل أمثالها فيكون خلقا كبيرا له في الوجود مظهر قائم وعمل حيوي منتظم

ان مدار حياة الاحياء الصغرى كالخلايا والكبرى كالشجر والبقر على الحقيقة وما فيها من سنن النظام [illegible] مدبر مختار من جنسها الا الانسان لانه في الارادة وجمعياته لا يستغني بالطبيعة عن تعاهد بعض افراده لبعض بالمادة والتربية الشخصية والاجتماعية

ان لهذه الاحياء الصغرى التي تتكون منها العوالم الكبرى أمراضا ولهذه العوالم نفسها أمراضا وان لكل مرض علاجا ودواء وان العلاج اذا صح يحول دون انهاكه لقوة الحياة أوالذهاب بها مادام الجسم الحي مستعداً للحياة أي ما بقي من عمره الطبيعي بقية

ان معالجة مرض ما تتوقف على العلم بحال ما عرض له المرض من حيث هو حي له مزاج يصح باعتداله الفطري ويمرض باعراض تخرجه عن الاعتدال والعلم بما سبق عروضه له قبل المرض الاخير الذي يحاول علاجه وبحقيقة هذا المرض واسبابه والعلم بالدواء و بالطريقة المثلى في المعالجة

ان الانسان أغرب الأحياء على هذه الأرض والعوارض التي تعرض لحياة أفراده فتمرضهم أو تقتلهم هي أخفى مما يعرض لغيره من الاحياء النباتية والحيوانية على

كثرة بحثه عنها وعنايته بمعالجتها ولذلك يقل في الناس من يصل الى نهاية العمر الطبيعي ويقل فيهم من يعيش سليما من الامراض والاسقام كالشجر والحيوان الأعجم

ان لحياة الانسان الاجتماعيــة امراضا كما أن لحياته الشخصية أمراضا وان معالجة الامراض الاجتماعية أعسر ، والتحقق بشروطها أندر ، ففي كل جيل من الاجيال ، ينبغ في الامم المشتغلة بالعلوم والفنون كثير من العلماء الإخصائيين والصناع الماهرين ، وقد تمر قرون وتنطوي اجيال ، تخلق فيها أحوال وتتجدد أحوال ، ولا يبعث طبيب اجتماعي في الأمة يرفعها من الحضيض الى القمة ،

ان حياة الامة التي ليس فيها أطباء اجتماعيون وهداة روحانيون ، تكون دون حياة الخلايا في الدوح ، وحياة النجم والشجر في الروض ، لأن حياة النبات قلما يعوزها شيء وراء الطبيعـــة وسننها في بلوغها غاية ما اعدتها حكمة التكوين له من النظام والكمال الشخصي والنوعي وحياة الانسان لا بد فيها من المربي لتصل الى كمالها فاذا فقد المربي كان الناس فوضى لا يعلو لهم شأن ولا يستقيم لهم أمر . وافراده حينئذ يشبهون خلايا الاجسام من حيث [illegible] بحياته الى حياة غيره وتأثيرها في الاجتماع وغايتها في الوجود على أن أفراد الانسان تشعر بعملها الجزئي ولكن يقل فيهــم من يشعر بتأثير عمله في الامة فيتحرى فيه مصلحتها و يعرف اندماج مصلحته فيها

اذا تمهد هذا فاسمع ما ألقيه عليك بشأن الامة الاسلامية في حياتها الاجتماعية ، إشارةً الى بدايتها وعبارة عما صارت اليه في هذا العصر يكون مثالا لانتقال الامم من طور الى طور من غير قصور ولا شعور

أطوار الامة الاسلامية

كانت هــذه الأمة في نشأتها الأولى تنفذ الرجـل من أبنائها الى المملكة فاتحا فيكون خير قائد في إبان الحرب ، وخير حاكم في زمان السلم ، يقيم العــدل ، ويعمر الأرض ، ويؤمن الرعية ، ويستبدل الحرية بالعبودية ، فيرى أقل رعيته ولو من غير أهل دينه وجنسه أنه مساويه في الحقوق والحرية بحيث لو نال منه نيلا فشكاه الى الخليفة الذي أنفذه لأقاده منه كما حاول عمر أن يقيد ذلك الصعلوك من جبلة

بن الأيهم ملك غسان لولا انه فر هاربا

بهذا اتسع ملك الأمة وانبثت حياتها العالية في أمم كثيرة فأحيتها وجددت للناس مدنية لم يسبق لهم عهد بمثلها بل لم يكتحل ناظر الزمان بنظيرها حتى هذا اليوم الذي نرى فيه من آثار العلم والاجتماع مالم نر من قبل فان انكلترا وهي أعدل دول أوربا لا تساوي بين آحاد أبنائها و بين أمراء الهند فضلا عن ان تساوي بين لورداتها وسلائل ملوكها وبين صعاليك مستعمراتها ، وان الخلفاء الراشدين ما كانوا يجيزون لأبنائهم ان ينفقوا ألوف الألوف من بيت المال في سياحتهم لأجل ان ينفخوا في الرعية روح عظمتهم ويشعروا سكان مستعمراتهم بمكان بأسهم وقهرهم كما أجازت بريطانيا العظمى للبرنس أوف ويلس وليّ عهدها في سياحته الاخيرة . فمثل هذا العمل تقرير لاستعلاء المالكين واستذلال المحكومين فهو جناية على البشر الذين لا يصلون الى الكمال الاجتماعي الا بكمال المساواة التي لا يمتاز فيها أحد على أحد الا بفضائله وأعماله كما قرر الاسلام

هذا الروح الذي نفخه الاسلام في المتعلمين به حتى كان الرجل الاميّ أو شبه الامي منهم يعمل في سياسة الممالك ما يعجز عنه الفلاسفة والحكماء قد كان من شأنه أن يستولي على العالم كله فيصلحه لولا أن الملوك الظالمين وأعوانهم من الفقهاء الجامدين قد أفسدوا جسم هذه الأمة فلم يعد مستعدا لحل هذا الروح والحياة به . فاذا كان عمرو بن العاص قد فتح مصر بجيش صغير فأحياها بالعدل وحسن الادارة حتى وصل النيل بالبحر الاحمر وآخى بين هذا القطر و بين الحجاز (وهو ممن لم يدخل المدرسة الحربية ولا مدرسة الحقوق ولا مدرسة المهندسخانه) فقد صار القطر الاسلامي العظيم يستعبده عدد قليل من الاجانب وصار المسلم المتعلم الحامل للشهادات العالية التي يظن أنه يفضل بها عظماء سلفه كعمرو وعمر يتنقل في قطر إسلامي كاليمن اليوم وكالسودان بالامس فيبغي في الارض ، ويجني على العرض والعِرض ، فيترك الارض موطوءة ، والاموال مسلوبة ، والدماء مسفوكة ، والاعراض مهتوكة ، حتى أنَّت الارض من حكم كل مسلم عليها ، واستغاثت السماء من سلطة كل مسلم تحتها ، وسمع رب العزة أنين

المظلومين وبكاء الباكين ، (١٤ : ١٣ فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) بما جاءهم على لسان النبيين ،

عم الظلم فأفسد الأخلاق وأضعف النفوس وطبع على قلوب الامة بطابع القهر والعبودية حتى لا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر، ولا تعاون على بر ، ولا تناصر على رفع ضر ، فذهبت ريح الدولة وقوة الامة واستعد الفريقان بعملهم لنقمة الله تعالى بدلا من سابق نعمته فكان تقلص ظل الحاكمين الظالمين عن رؤوس المظلومين الخاضعين بأيدي الاجانب لا بأيد الامة وبهذا كان الانتقام عاما ولو كانت الامة هي التي هبت لازالة الظلم بأيدها وأخذ صولجان الحكم بيدها لكان الانتقام خاصا بالظالمين وبقي للامة عزها ومجدها

دب الفساد الاجتماعي في جسم الامة فلم تشعر به فتماثله فكان أفرادها بفقدهم الشعور بما يحل بهم وبما يكون من عاقبته في مجموعهم كخلايا الشجرة أوالثمرة يعرض الفساد بجانب [illegible] ولا تعدي [illegible] جسمها . ذلك أن الظالمين بدأوا بإزهاق روح التكافل الذي يربط بعض الافراد ببعض فيكون سببا لسريان شعور المجموع بما يطرأ على الافراد وانفعال المزاج الكلي بذلك واندفاعه الى دفع العرض الطاري، قبل سريانه واستشرائه فان من طبيعة الجسم الحي أن ينفعل مزاجه بما يعرض لاي عضو من أعضائه فيوجه قوته لدفع المرض باعانة ذلك العضو عليه ألا ترى أن الدم يكثر وروده على الدماغ عند انهماكه في الفكر والى المعدة عند اشتغالها بالهضم والى نحو اليد يصيبها برد أو ضرب . والامة الحية كالجسم الحي توجه قوتها الى إعانة كل فرد من أفرادها يصيبه ضر أو يرهقه ظلم حتى تدفعه عنه أو تعجز فتكون من الهالكين كما اذا عجز المزاج الصحيح في جسم الحيوان عن دفع عوارض الفساد بنفسه أو بمساعدة الطبيب فان الفساد يغلب حينئذ على الجسم فيفسده

كيف أزهق الرؤساء المفسدون روح التكافل في جسم هذه الأمة ؟ حولوا السلطة من الشورى الشرعية الى الاثرة الاستبدادية ، وفرقوا بين المسلمين في الجنسية، فقالوا عربي وعجمي ، وفارسي وتركي ، وفي اللغة، فقالوا لغة رسمية ولغة

دينية ، وفي المذاهب فقالوا سني وشيعي ، وحنفي وشافعي ، وفي الوطن فقالوا مصري وشامي ومغربي وحجازي ، واذا كنت تظن ان هذا الضرب الاخير من التفريق أهون ضرراً وأقل شراً فانا أذكر لك كلمتين لرئيس ديني ورئيس دنيوي تعرف بهما مبلغ تسمم جسم الامة الاسلامية بسم الوطنية . رأى عالم من علماء الدرجة الاولى بل شيخ من مشايخ الازهر السابقين يلقب بشيخ الاسلام خطيباً شامياً في جامع بمصر فقال ان هذا الجامع حسن وموقعه عظيم « ولكن من الاسف حشوه بالشوام » وقال رئيس كبير من رؤساء الدنيا في معهد من معاهد العلم الديني — وقد رأى فيه حجرات كثيرة للطلاب من قطر غير قطره — : ماذا فعل لنا هؤلاء ... حتى نعطيهم كل هذه الحجرات وأهل البلد أحق بها منهم ؛ أو ما هذا معناه . على انه لم يكن هو الذي أعطاهم وانما تلك أماكن وقفها عليهم أناس آخرون من غير قوم القائل ومن غير وطنه

هنالك إفساد آخر هو أعظم من كل إفساد وهو الحيلولة بين المسلمين وبين هداية القرآن الذي جعل أمر المسلمين شورى بينهم لا في أيدي أفراد يستبدون فيهم وفرض عليهم مقاومة الظلم والافساد في الارض بقوة الامة وغير ذلك مما يحفظ حياة الامم بل ينميها حتى تبلغ كمالها ولولا هذا الافساد لما تم لظالم ولا لمفسد ما أراد

سرت كل هذه الامراض في جسم الامة الاسلامية من حيث لا يدري الافراد ولا يشعرون كما علمت من التمثيل السابق وكان من عواقبها ان أكثر الممالك الاسلامية خرجت من أيدي المسلمين وما بقي لهم فهو في طور النزع ولكن هذا العصر يمتاز على ما قبله بشعور كثير من أفراده بأن الأمة في مرض ، ودولها في حرض ، فاذا لم تبادر بالعلاج ، تم فساد المزاج ، وأجهز عليها الظالم ، فهلك المحكوم في أثر الحاكم ،

يهؤلاء الافراد على قلتهم وضعفهم أخذ المسلمون يستعدون لاستعادة ما فقدوا من مزايا الانسانية ولكن المفسدين لم يغفلوا عن مراقبتهم فهم يجتهدون في إماتة شعورهم بالضغط والاضطهاد تارة وبالرتب والرواتب تارة أخرى ومن ثبت على نار الفتنتين اضطر الى الفرار من ديارهم الى ديار أخرى يأمن فيها على نفسه أن

تمثال ، ويجد فيها الحرية فكره ولوبعض المجال ، والانفوه الى بلد قفر ، أو جزيرة في البحر ، حتى لاينتشر له فكر ، ولا يسمع له ذكر ،

وجملة القول ان المسلمين كانوا أحياء بالاسلام نفسه على بصيرة وبينة ولما عرض لهم حلم الفساد اضطرب مزاجهم فتداعوا الى ازالته فحال دون ذلك تحول السلطة الاسلامية عن صراطها ثم ضعف الشعور بفعل هذا الحلم بجسم الأمة لقوة مزاجها وضعف سائر الأمم دونها ثم خدر المرض أعصابها فكان الحلم يفعل فعله وهي لاتشعر حتى عمّ الفساد كل عضو من أعضائها – ونعني بالأعضاء الشعوب والفرق التي اقتسمت اليا وحدة الأمة — فلا يوجد شعب إسلامي حي ولا حكومة إسلامية الا وهي تعفو ما بقي من رسوم الاسلام وتجدّ في إرسال أهله الاما يقال عن حكومة الأفغان من عنايتها بحفظ استقلالها بالقوة العسكرية الحديثة وهذا ضروري ولكنه غير كاف كما نرى في تركيا فلا بد من نشر علوم الكون في الأمة واعدادها للحكومة المقيدة بالشورى والا كانت من الهالكين

أما ذلك الشعور الذي تجدد لأفراد من المسلمين فهو لا محل له في مملكة من ممالكهم الا إعدادا بطيئا للانتقال الى طور آخر مجهول لعامتهم ، ومشكوك فيه عند خاصتهم ، لايدرون أيكون مرضا مضنيا ، أم موتا مرديا ، أم يكون حياة سعيدة ، وسيادة جديدة ، أساسها العلم والعدل ، وغايتها العمران والفضل ، فمنهم اليائس يزيد في الافساد ، ومنهم الراجي يدعو الى سبيل الرشاد ، وهكذا شأن الامم في طور الانتقال ، لاتستقر من الاضطراب على حال ،

من أسباب يأس اليائسين أن المسلمين قد خرجوا بتقسيم رؤسائهم اياهم الى شعوب وأجناس ومذاهب عن كونهم أمة واحدة فلا فائدة في تكثيرهم ، ولا رجاء في وحدتهم ، وانما يجب الحكم عليهم بحسب حكوماتهم سواء كانت منهم أو من غيرهم فقد أعدم الظلم والاستبداد لان يكونوا عبيدا لمن يحكمهم . واذا نظرنا في حال حكوماتهم وجدنا الاسلامية منها أسرع في الاجهاز عليهم من الأجنبية (ونعني بالاسلامية المنسوبة الى المسلمين لاما كانت على قواعد الاسلام فان هذه لاوجود لها في الأرض) فاذا كان من الغرور أن نرجو حياة الشعب الجاوي

تحت سلطة هولندا والمغربي تحت سلطة فرنسا مثلا فمن الجنون أن نرجو حياة الشعوب العثمانية المتمرقة تحت سلطة تركيا والشعب الفارسي تحت سلطة حكامه ومجتهديه. ذلك بأن حكومات الأجانب على منعها النور الحقيقي ان ينفذ الى عقول المسلمين فيحييهم بحرارته وهدايته لا سلطة لها الا بقوتها الحسية على الاجسام وأما الحكام المسلمون فان لهم سلطتين — القوة الحسية على الاجسام والقوة المعنوية في الأرواح لان المسلمين توارثوا الاعتقاد بوجوب الخضوع لهم على أنه من الدين وقلما يوجد فيهم من يعلم أن من أعظم قواعد الدين انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا حكم الا لله ومن استحل الحكم بما يخالف القواعد الشرعية المنصوصة كان مارقا من الاسلام (٥: ٢٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وهؤلاء العارفون على قلتهم لا يسمح لهم الاستبداد بنشر علمهم في الأمة لئلا تنبعث لاقامة الشرع على أساس الشورى فيبطل سلطتهم الاستبدادية التي تنطوي في باطنها نزعة الألوهية.

ويقول هؤلاء اليائسون أن هؤلاء الأوربيين الذين استولوا على أكثر بلاد المسلمين يتربصون بباقيها الدوائر وحكامها يمهدون لهم السبل بالظلم والقضاء بالجهل على العلم وباقتراض الأموال منهم ومنحهم «الامتيازات» في بلادهم وهم يجتهدون دائما في الاتفاق على قسمتها بينهم فلا يمر عقد من السنين الا ونراهم قد أكلوا حقا جديدا فيها أو قلصوا ظل نفوذنا عن ولاية منها ثم هم أقدر البشر على سياسة الأمم والتصرف في الشعوب فاذا دخلوا ولاية قبض أفراد منهم على قواها المالية والعسكرية والعلمية والأدبية وذللوا الأمة لسلطانهم فهم يسخروننا لخدمتهم بقوتنا ، حتى لا يدعون لنا سبيلا الى استعمالها في منفعتنا ، وأعظم مظهر لسياستهم العليا فيها أن سلطتهم تكون أقوى وأرسخ وربحهم يكون أكثر وأسهل في البلاد التي يبقون فيها لنا اسم السلطة ويرضون بمعناها لأنفسهم فهم يستعبدوننا بواسطة استعبادهم لحكامنا الذين أنسنا بالعبودية لهم . فأين موضع الرجاء لهذه الشعوب الجاهلة المتفرقة المستعبدة مع هذه الامم العالمة المستقلة المتحدة ؟؟

هذا مجمل احتجاج اليائسين من أهل الشعور بما ينذر المسلمين من الخطر فرأيهم ان طور الانتقال الذي هم فيه سينتهي بطور دخولهم تحت سلطة الاجانب وزوال استقلالهم

من الوجود زوالا أبدياً كما زال استقلال بني اسرائيل الا ان يحدث في العمران انقلاب كبير لا دليل عليه الآن

وأما أهل الرجاء — ونحن منهم — فانهم يعرفون مايحتج به أهل اليأس ولا ينكرونه ولهم نظر آخر أبعد، ورأي أسد — ان شاء الله وأرشد، يؤيدونه بآيات الوحي، ويستدلون عليه بطبيعة العمران وشؤون الاجتماع، ولا يتسع هذا المقال لشرح مايجوز نشره منه، وانا نوجز القول فيما لا مندوحة عنه .

ان المسلمين — وان اختلفوا في اللغات والمذاهب والأوطان والحكومات — يتفقون في أمر واحد تتبعه أمور جوهرية من ناحيتها يدعون الى مايحييهم ويجعلهم أمة عزيزة تشعرها وحدة الاعتقاد بأن لها مصلحة واحدة يجب على شعوبها الاتحاد والتكافل في سبيلها وإن ظلوا على اختلافهم في تلك الأمور العظيمة حتى اذا ما انتشرت الدعوة الى الأمر المتفق عليه (وهو القرآن) استتبعت الوحدة في اللغة والوحدة في المذهب أو اتقاء الاختلاف في المذاهب وصار كل شعب من شعوب المسلمين [illegible] الآخر [illegible] وقربها واختلاف الحكومات والاجناس ولا تسألني عما يكون بعد ذلك وانا لنعلم مايكون قبله

الدعوة الى القرآن تستتبع الدعوة به الى جميع العلوم الكونية من طبيعية واجتماعية لأجل تكميل النفس بعرفان حكم الله في صنعه وإبداعه ولأجل تعزيز دينه بآثار تلك العلوم وتستتبع طلب المزيد من نعم الله ومساهمة الأغنياء والاقوياء للفقراء والضعفاء في هذه النعم بأداء الزكاة وغيرها من الصدقات التي تقوم بها المصالح العامة والخاصة وتستتبع حكم الشورى واقامة العدل وغير ذلك من أركان السعادة . فاذا وفق الدعاة لاقناعهم بهذا وحملهم عليه فقل قد نفخت فيهم روح الحياة التي لاموت بعدها . نعم ان هذا الاجمال لايقنع القارئ بهذه الدعوى وإن التفصيل مع بيان الدليل لامحل له هنا على أن شرح ذلك انما يفيد أهله الذين استعدوا للقيام به دون من يقرأ لأجل التسلي أو الانتقاد كما هو شأن أكثر الناس

بينا في مقالة الحياة الملية من المجلد الثامن شيئاً من حقيقة هذه الحياة التي هي محل رجائنا وذكرنا هناك العلوم التي تحتاج اليها وكيفية تمهيد العقبات التي

نعرض في سبيلها ونحن الآن في حاجة الى بيان ان المسلمين في طور انتقال من حال الى حال وأن هذا الطور شبيه بطور النقه من مرض تخشى عاقبته ولا تؤمن نكسته، وأنهم محتاجون فيه الى الأطباء الروحانيين العالمين بأدواء الاجتماع وطرق معالجتها والا سبقهم الأجانب لتحويل الأمة في هذا الطور الى حياة مذبذبة ينقطع كل رجاء للاسلام فيها

ثبت بالتجربة والاختبار أن المتعلمين للعلوم الكونية هم الذين يسودون أممهم كما ان الامم السابقة في مضمار هذه العلوم تسود المتخلفة فيه فالناس تبع لهؤلاء المتعلمين صلحوا أم فسدوا فهم التيار الجديد الذي يحول الأمة من حال الى حال وعقول هؤلاء المتعلمين وقلوبهم بين أيدي الاجانب فهم الذين يودعون فيها وينقشون في ألواحها المستعدة ما يريدون على علم منهم بغايته وأثره . ومما نشاهد من أثره أن أكثر المتعلمين لا قيمة للدين الذي هو الرابطة العامة للمسلمين في نفوس أكثرهم فهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون وإنما همّ أكثرهم التمتع باللذات الحسية ولو بالتوسل إليها بجميع الوسائل الممكنة . ثم هم مع هذا مغرورون بأنفسهم يحسبون أنهم أرقى من سلفهم الصالح عقولا وأرجح أحلاما وأوسع علوما وأفضل آدابا وأقدر على الأعمال الاجتماعية، فلا الدين عرفوا، ولا حب الأمة أشربوا، وكيف وهم على جهلهم بشريعتها يجهلون تاريخها الذي لم يتفضل عليهم ساداتهم الاجانب بشيء حقيقي منه الا بعض المسائل المنتقدة التي صوروها بغير صورتها وألبسوها غير لباسها واستنبطوا منها ما لا تدل عليه من العيوب والمساوي . وغفل متعلمونا الاذكياء عما اعترف به المنصفون من فلاسفة اساتذتهم المتصرفين في عقولهم وقلوبهم من حيث لا يشعرون من تعظيم شأن مدنية المسلمين الاولين الذين أقاموا ميزان العدل بعد ميله وأحيوا موات العلم بعد موته كما غفلوا عن أنفسهم التي لم يوجد لها في الارض أثر محمود فلا رفعوا أمة من سقطتها ولا أحيوا دولة بعد موتها ، ومالي لا أذكرهم بتعصب أساتذتهم لدينهم والسعي في نشره بما يبذلون من الملايين ، لجميات الرهبان والقسيسين ،

كلا ان القصد الى بيان حال المتعلمين في مثل مصر والاستانة وانهم كالعلامة

في جهلهم بعاقبة علمهم وعملهم في الامة فكل واحد منهم يفكر في خويصة نفسه فهو يتعلم لغاية يجعلها نصب عينيه وهي رزق مضمون يتمتع به كما يتمتع خواص قومه. يعذر التلميذ في هذا ولا يعاب لأنه لا يتوجه الا حيث يوجهه معلمه ومربيه فمن لم يكن له أم ولا أب ولا معلم ينفخ فيه روح حب الأمة والملة لا يرجى ان يهتم بجعل حياته الشخصية ركنا من أركان حياة أمته الملية يبذل شيء من وقته وشيء من فضل ماله في خدمتها وإعلاء شأنها .

اذا كان الكمال الشخصي يتوقف على حسن تربية الشخص البدنية والنفسية فهل يمكن ان يكون الكمال الاجتماعي بالمصادفة والاتفاق أو بترك معظم نشء الامة فوضى والقذف بمن يراد تعليمهم من الذكران والاناث الى الاجانب حتى الجزويت والفرير ينقشون ألواح نفوسهم بما يشاءون ؟؟

هذه الحال التي نرى عليها أكثر الذين تعلموا العلوم العصرية والتي يظن أن سيكون عليها أو على ما هو دونها من يتعلمون الآن تستطيع ان تكون حججا لليائسين من اصلاح حال المسلمين ولكن أهل الاجانب يرون في اثناء هذه الظلمات المتكاثفة بصيصا من النور يوشك ان يتألق فيقشع كل ظلمة ويظهر صراط الحق للسالكين. يرى البصير في مصر والهند نابتة على شيء من استقلال الفكر ويرى في روسيا نابتة لم يعمل في أرواحها سم الاجانب عمله في غيرها وهي مع ذلك تطلب العلوم والتربية لاجل الحياة ويرى في الاستانة نفسها على شدة الهيمنة فيها على الافكار والمراقبة على العلم نابتة تلتهب غيرة وتشعر من معنى الاستقلال بما لا يشعر به سائر المسلمين ويرى في ايران هزة جديدة، وحركة يرجى ان تكون مفيدة، ويرى في تونس حركة أخرى حيوية تعوزها نفحة من نفحات الحرية، وليس استقلال الفكر هو كل ما استفادت نابتتنا من الاجانب بل أصابتهم نفحة من نفحات الحياة الاجتماعية . فهذا الخير يتنازع مع تلك الشرور في هذه النفوس الضعيفة ولا يعوز الامة الآن الا الاطباء الروحانيون والزعماء الاجتماعيون الذين يشرفون على الأودية والترع والسواقي التي تجري فيها سيول الحوادث الجديدة بالامة ويقدرون على تحويلها الى حيث تكون محيية لأرض الأمة

ما رأيت لكاتب في هذه البلاد كتابة ولا علمت لعامل عملا ينبيء بمراقبته

للتغيير الاجتماعي الذي ينتقل بالامة المصرية من حال الى حال (وحاشا من فقدنا بالامس) الاما يكتبه اللورد كرومر في تقاريره السنوية ، وما يدير به أمور الحكومة الكلية، هو الذي ينظر في عاقبة الاعمال المالية الكبرى ويسيرها كابرى ، هو الذي قال في المحاكم الشرعية انها ستمد اليها يد لا تعرف للقديم حرمة، هو الذي توقع من زيادة الاقبال على تعليم البنات ما وقع وأشار بالنظر في مغبته، هو الذي فهم ما يرمي اليه اعتصاب تلاميذ المدارس فاهتم به اهتماما لم يفهم سره الا الاقلون فمن لنا بمرشدين ينظرون في أمورنا الكلية بتلك العين ، ويرجحون لسير ثابتنا خبرا التجددين ؟ هذا ما نحن في أشد الحاجة اليه لاصلاح شؤوننا في هذا الطور الذي نحن فيه فالزعماء المصلحون هم الذين يحولون مجاري الحوادث التي تعمل في استعداد الامة وتميرها الى ما فيه خيرها وسنفرد لهم مقالا خاصا بهم

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا. ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ أسئلة من سنغافوره ورأي عالم في المنار والمسلمين ﴾

(س٦–٩) من خ . م . س في سنغافوره

تشرفت بلقاء بعض الفضلاء من علماء المسلمين فانجر بنا الحديث الى ذكر الاحوال الحاضرة فيما للاسلام والمسلمين فيه وعليه فجرى ذكر المنار المنير فأثنى عليه بما هو أهله ثم شافهني بقوله : تنبه كثير من المسلمين بدعاء المنار الى الله تعالى وتمحيصه الحقائق واني أرفع اليك هذا لترفعه الى المنار الأغر لينشره على صفحاته مؤملا منه ان يبسط لنا في الجواب على ما سألناه وما ضالتنا المنشودة الا الارشاد الى الحق – وهذا ما قاله ذلك الحكيم –

ضرب الجهل أطناب خيامه في بعض البلاد الاسلامية التي كان لسلفها القدح المعلى في

العلوم والمعارف والاعمال حتى صارت الآن خلوا من كل ما يطلق عليه اسم (مجد) بل لا يبعد ان قلنا ان من فيها من الخلف ضد لسلفهم وقد أهملوا كل شيء من المجد اتكالاً على مجد من سلف حتى اذا ماعرا حادث اتكلوا في دفعه على سكان الاضرحة فتراهم يعتقدون في صالحي أمواتهم أنهم مطلعون على أي حادث عرا وأنهم ان شاؤا دفعه عنهم دفعوه وان رأوا في ابقائه صالحاً أبقوه وتراهم يقدسون تلك البقاع التي لم يرد في الشرع تقديسها ويرون في مطلق الاقامة بها شرفاً وفضلا وان كان المقيم بها خلوا عن كل فضل وشرف

فهل أنزل الله بهذا من سلطان ؟ وهل فيما يعتقدونه شيء ورد به الكتاب والسنة ؟ وهل فيما اذا ورد عن سلفهم شيء ولم نجد له دليلا من الكتاب والسنة فعلى ماذا يكون حمله ؟ وهل يجب على أحدنا التصديق بالولاية لشخص معين ؟ وماذا يكون حكم من رد شيئاً من كلامهم في نحو ماذكر اعلاه ولم يعترف بولاية أحد معين ؟ وقد جاء من نحو هذا في بعض اعداد المنار السابقة ما جاء ولا أمل في حضرة الاستاذ الرشيد المرشد ان لا يحيلنا على ما سبق [illegible] فصلا وليكن في معلومكم سيدي ان هذا الداء قد أزمن في كثير من بلاد المسلمين فيحتاج الى معالجته بدواء فيه قوة لاستئصاله — فلعل ان يكون دعاء المنار الى الحق بالحق مقبولا عند أولئك كما أنه قبل دعاء المنار كثير ممن ضلوا فأضلوا ثم اهتدوا فهدوا —

(المنار) ترجع هذه الاسئلة الى أربع مسائل (١) الدليل على دعاء الموتى أي التماس دفع الشر وجلب الخير منهم (٢) ما يرد عن العلماء ولا يعلم له دليل (٣) حكم من رد كلام العلماء الذي لا دليل عليه (٤) الاعتقاد بولاية شخص معين من الناس أي ان له مكانة عند الله خاصة به في الدنيا والآخرة . وان كثيرا من قراء المنار قد سئموا كثرة الكلام في مسألة التوسل بالموتى الى قضاء الحاجات ولكن فتنة الناس بها وتجدد قراء كثيرين للمنار في كل عام لم يطلعوا على ما سبق نشره في ذلك مع حاجتهم اليه يوجب علينا مع تجدد السؤال عنها ان نبين الحق فيها فنقول

﴿ مسألة دعاء الموتى والتوسل بهم ﴾

(ج ٦) لو كان الكلام مع أناس من أهل العلم والبصيرة لكان يكفينا في بيان

بدعتهم في ذلك أن تقول إن ما تأتونه لم يأذن به الله في كتابه ولا على لسان رسوله ولم يأت بمثله صالحو المؤمنين من الصحابة والتابعين وهو أمر ديني محض لامجال للرأي فيه فمن يقول به يكون منازعاً لله تعالى في شرع الدين كما قال تعالى في سورة الشورى (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) الآية . فان ادعوا ان أحداً من السلف دعا ميتاً أوطلب منه حاجة أوصلى عند قبره أوتمسح به أوقصده للدعاء أوقال إن الدعاء عنده أرجى للاجابة طالبناه بالنقل ولن يجده . وأما قصارى احتجاجهم ان بعض مشايخ التصوف الذين اشتهروا بالصلاح كانوا يتبركون بالقبور . والجواب عنه سهل لمن يعرف ما هو الاسلام فان علماء أصول الدين حصروا الحجج الشرعية في الكتاب والسنة والاجماع والقياس . ولا ينهض شيء من ذلك هنا أما الكتاب والسنة والاجماع فان طريقها النقل ولم ينقل ذلك أحد وأما القياس فانه لا يأتي في الأمور التعبدية ولا فيما يتعلق بشأن عالم الغيب والمسألة من هذا القبيل لأن المفتونين بها فريقان ــ غلاة يزعمون ان الموتى يقضون حاجاتهم بأنفسهم لأن أرواحهم مأذونة بذلك وقال بعضهم بل هي تعود الى اجسادها التي لا تبلى وتقضي الحاجة كما كان شأنها في الحياة الدنيا : وأنت ترى أن هذا نبأ عن عالم الغيب وهو لا يعرف الا بالوحي كما قال تعالى (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول) الآيات وفيها ان الرسول يطلعه الله تعالى على مايريد ان يبلغه عنه من أمر عالم الغيب كالجنة والنار والملائكة والجن .

واما الآخرون فيقولون ان الله تعالى يقضي حاجة من يدعوهم كرامة لهم . وهذا حكم على الله تعالى وهو أعلى أحكام عالم الغيب ولا قياس فيه فهو يتوقف على نص من الوحي والا كان من القول على الله بدون علم وهو من كبائر الاثم المقرونة بالكفر وهي أصول المحرمات في كل دين شرعه الله كما بينه تعالى في قوله بسورة الاعراف

(٧ : ٣٣ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

على أن هذه المسألة — مسألة الناس دفع الضرّ أوجلب النفع من غير الله استقلالا أو بالوساطة والشفاعة — لم تكن لتترك فلا يبين حكمها في القرآن وهي أصل الوثنية وأساسها في جميع الامم ولذلك فتن بها أهل الكتاب فاتخذوا وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله تعالى غير وسطاء أجدادهم أوخلطائهم من الوثنيين فهم لم يخالفوا الوثنيين في أصل هذه العقيدة وحقيقتها ، وإنما خالفوهم في مظهرها وصورتها ، إذ اعتقدوا الوساطة والشفاعة مثلهم وجعلوا لهم شفعاء ووسطاء من أنفسهم غير وسطاء أولئك وشفعائهم . أفرأيت دين التوحيد الخالص يسكت عن هذه المسألة و يدعها للفقهاء يحكمون فيها بقياسهم وهي تتعلق بأساس الدين وركنه الركين وهو التوحيد؟؟

قال تعالى (١٠ : ١٨ و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » أي أنهم باتخاذ الشفعاء يعبدون غير الله لأن هذا عين العبادة ولكنهم يقولون ان هذه شفاعة عنده فهي لا تخل بتعظيمه بل هي تعظيم له كما تعظم الملوك اذ لا يتجرأ الحقير على دعائهم الا بواسطة المقربين عندهم . وقد نفى سبحانه هذه الشفاعة في آيات كثيرة قال تعالى في سورة البقرة (٢ : ٤٨ ولا يقبل منها شفاعة — ١٧٣ ولا تنفعها شفاعة — ٢٥٤ ولا خلة ولا شفاعة) وقال في سورة المدثر (٧٤ : ٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ») وقال في سورة الانعام (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون » — ٧ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وذكّر به أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيع) الآية ومعنى تبسل تسلم الى الهلاك أي ان الذين تدفعهم أعمالهم الى الهلاك لا تنجيهم من عاقبتها شفاعة أحد . والآيات في هذا كثيرة وارجع الى التفسير من هذا الجزء تجد الكلام في معناها مفصلا

وكانوا يطلقون على هؤلاء الشفعاء لقب الاولياء كما تقدم في آيتي الانعام آنفا ومثلهما آية الم السجدة (٣٢ : ٤ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون)

وقال تعالى في سورة الزمر (٣٩:٣) والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار ٭ لو أراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ٭) فدلت الآية الثانية على أن من جملة هؤلاء الاولياء المسيح عليه الصلاة والسلام والملائكة أي ان الناس يتقربون بأشخاصهم وذواتهم الى الله تعالى زلفى وهذا باطل اذ لا يتقرب أحد الى الله تعالى بأحد انما يتقرب اليه تعالى بالعمل الصالح واخلاص القلب مع الايمان الصحيح . وأنت تعلم أن كل ما يعتقده المبتدعون في أصحاب القبور الصالحين هو من هذا القبيل أي ان التوسل بأشخاصهم يقرّب من الله تعالى ويكون وسيلة لقضائه سبحانه وتعالى حاجة من يدعوهم ويتقرب بهم . ولذلك قال تعالى في سورة الاسراء (١٧:٥٦) قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ٭٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ٭) أي ان أولئك الاولياء الذين يدعونهم لكشف الضر عنهم أو تحويله توسلا بهم كالمسيح هم أنفسهم يطلبون الوسيلة الى الله تعالى بعبادته ويرجون رحمته باتباع سنته والعمل بشريعته ويخافون عذابه اذا قصروا ، حتى ان أقربهم من مرضاته هو أخوفهم منه وارجاهم له . ذلك بأن عذاب الله في الدنيا والآخرة مخوف ومحذور في نفسه لأن لله فيه سننا لا تتبدل يوشك ان يخالفها المرء من حيث يدري أو من حيث لا يدري وأن القلوب تتقلب وأنه لا يجب لأحد من خلقه عليه شيء . ولذلك قال (٥:١٧ قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد ان يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ٭) فبمثل هـذه الآية يهدينا سبحانه الى أن ملائكته وأنبياءه وأولياءه ما كانوا ليرجون رحمته الا بفضله عليهم اذ جعلهم محلا لطاعته وارشاد عباده فلا نغلو في تعظيمهم حتى ننسى كونهم عبيدا له ان شاء أن يهلكهم فعل لئلا نطلب منهم نفعا أو ضرا . ومن ثم قرن الله خشيته بالعلم وجعله من أسبابها كما قال (٣٥:٢٧ انما يخشى الله من عباده العلماء) وفي حديث الصحيحين عن عائشة قالت صنع رسول

الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « ما بال أقوام يتنزهون من الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية »

ثم ان مايطلب من أصحاب القبور وغيرهم يعبر عنه بالدعاء كما قال في الآية السابقة « أولئك الذين يدعون » الخ وقد احتج القرآن على بطلان هذا الدعاء بقوله (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه لا يملكون من قطمير ٥ ١٤ إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ٥) ومثلها آيات كثيرة . وقوله في نهي المؤمنين ان يكونوا مثل هؤلاء الوثنيين في طلب شيء أعوزهم نيله بسببه من غير الله تعالى (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً)

هذا ولما كان أكثر الوثنيين قد فتنوا برجال من صالحيهم حتى اعتقدوا أنهم بعد موتهم ينفعون ويضرون وكانت هذه الفتنة قد سرت الى أهل الكتاب فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وصاروا يبنون عليهم الكنائس أو ينسبونها اليهم ويتوسلون بهم الى الله تعالى و يعتقدون ان الله يقضي حاجاتهم بجاههم أو انه أعطاهم قوة قضائها بأنفسهم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء المساجد على القبور وعن عمارة القبور نفسها وعن وضع السرج عليها بل ونهى عن زيارتها في أول الاسلام ولما تمكن التوحيد رخص في زيارتها بقصد الاعتبار بالموت وتذكر الآخرة فعمل المسلمون في هذه الأزمنة كل مانهى عنه ولعن فاعله ومن ذكرهم ونهاهم عن هذه البدع انكروا عليه بأنه هو المبتدع لأنه منكر لزيارة القبور كأن زيارة القبور تحمي كل تلك البدع التي هي شعار الوثنيين مع ان الصحيح في الأصول عند الجمهور ان الأمر بالشيء بعد النهي عنه انما يدل على اباحته لا وجوبه أو ندبه وهب ان الأمر بالزيارة بعد حظرها للندب أو الاستحباب أليس قد علت بعلة تذكر الآخرة فاذا فعلت لعلة أخرى كدعاء الميت وطلب الاستفادة منه أوبه تكون قد خرجت عن دائرة الاذن ودخلت في باب المحظور الذي لم يأذن به الله ؟

ومن عجائب تلاعب الاهواء بالمبتدعين ان كل ماورد من التشديد في بناء

القبور وتشريفها والبناء عليها ووضع السرج عندها واتخاذها مواسم واعيادا لم يقصد به الا سد باب الاعتقاد بأن صالحي الموتى ينفعون الأحياء ويضرونهم كما ان النهي عن التصوير وعن اتخاذ الصور بصفة تشعر بالتعظيم لم يقصد به الا المنع من تصوير من يعظمون تعظيما دينيا كما هو شأن الوثنيين ومن تبعهم من أهل الكتاب الأمران من باب واحد ولكن علماء المسلمين سكتوا للعوام على ضلالهم في القبور حتى لا تكاد ترى في مثل هذه البلاد مسجدا ليس فيه قبر مبني مشرف يقصد للتوسل به وطلب دفع الضر وجلب الخير منه ولكنهم يشددون في التصوير واتخاذ الصور وان لم تكن فيها شائبة الدين ولا الشبهة على الاعتقاد أو التعظيم . وانا نختم هذا الجواب بشيء مما ورد في القبور

قال صلى الله عليه وسلم : قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا رواه أحمد والبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة . زاد مسلم والنصارى . قالت عائشة ولولا هذا لأبرز قبره [illegible] صلى الله عليه وسلم عن أعين الناس منعهم من [illegible] انه هو الذي خاطبه الله تعالى بقوله (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ومثلها آيات . وفي صحيح مسلم انه قال قبل ان يموت بخمس « ان من قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وفي الصحيحين أنه ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال « أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » وفي مسند أحمد وصحيح أبي حاتم عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وفي سنن أبي داود وغيره عنه (ص) انه قال « لا تتخذوا قبري عيدا » وفي موطأ مالك عنه (ص) انه قال « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وما عبادة القبر الا تعظيمه وطلب الحوائج ممن دفن فيه ومن التعظيم الذي هو عبادة الطواف به

كما يطاف بالكعبة والتمسح به التماسا للبركة والشفاء وتقبيله . فانّ من نهى صلى الله عليه وسلم عن مثل فعلهم كانوا يفعلون ذلك . وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس أنه قال « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وفي اسناده أبو صالح باذام تكلم فيه ويعضده ما تقدم .

واما آثار الصحابة في ذلك فكثيرة . ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص وغيره أنه ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكانا للصلاة فسأل عن ذلك فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، من أدركته الصلاة فليصل والا فليمض : وبلغه ان قوما يذهبون الى الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها . وأرسل اليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف (أي كتاب) فيه أخبار ماسيكون وأنهم اذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل اليه عمر يأمره ان يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا يدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به

(قال شيخ الاسلام) فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله واذ لم يبن عليها مسجدا ولكن بناء المساجد عليها أعظم . وكذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بني على قبر وإن كان الميت قد قبر في مسجد وقد طال مكثه سوّي القبر حتى لاتظهر صورته فانّ الشرك انما يظهر اذا ظهرت صورته . واستدل على هذا الاخير بأن المسجد النبوي كان مقبرة فنبشت وسويت . وما ذكره في هدم المسجد المبني على قبر نقل نحوه ابن حجر في الزواجر وقد نقلنا عبارته في المنار من قبل

وجملة القول أن الله تعالى لم يأذن بأن يدعى غيره لدفع ضرّ أو جلب نفع لا على أنه مستقل بذلك ولا على أنه واسطة بينه وبين عباده في الخلق والتدبير وانما حصر الوساطة بينه وبين عباده بتبليغ دينه وشرعه اليهم على لسان رسله وقد حصر خصوصيتهم بهذا التبليغ في آيات كثيرة وبين أنهم لايمتازون عن سائر الناس

بشيء وراء الوحي وما يستلزمه من الصفات كالصدق والامانة وأنهم لا يقدرون على نفع أحد ولا ضره بالفعل حتى بالهداية والرشد ومن حكمته أن كان بعض آبائهم وابنائهم وأقاربهم كفارا ليعلم الناس أنه لو كان لهم من الامر شيء لهدوا جميع أقاربهم وأنقذوهم من عذاب الدنيا والآخرة . أفبعد هذا كله يكون لمدعي الاسلام وجه ما لدعوى أن الاموات الصالحين يملكون كشف الضر أو تحويله عن الناس وجلب المنافع لهم وذلك من الوثنية الصريحة « سبحانك هذا بهتان عظيم ۞ يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ۞ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ۞ » (١)

﴿ أقوال العلماء بغير دليل ﴾

(ج٧) لا حجة في قول أحد بالدين دون قول الشارع ويجب رد كل قول لم يؤيد بدليل للحديث المتفق عليه « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » أي مردود وبذلك صرح الأئمة المشهورون قال أبو الليث السمرقندي حدثنا ابراهيم بن يوسف عن أبي حنيفة انه قال « لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا » وروي عن أصحابه مثل ذلك وفي رواية « ما لم يعرف دليلنا » وممن نقل عنهم ذلك الشعراني وولي الله الدهلوي . وفي روضة العلماء من كتبهم : قيل لأبي حنيفة اذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه ؟ قال اتركوا قولي لكتاب الله . فقيل اذا كان خبر الرسول صلى الله عليه وسلم يخالفه ؟ قال اتركوا قولي لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقيل اذا كان قول الصحابة يخالفه قال اتركوا قولي لقول الصحابة

وروى الحافظ ابن عبد البر بسنده الى معن بن عيسى قال سمعت مالك بن أنس يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه : ورواه غيره أيضا . ومن المشهور عن مالك انه كان يقول عند التحديث في الحرم النبوي الشريف :

---

(١) لا نلتزم بيان عدد الآيات التي تذكر بطريق الاقتباس لا لبيان معناها في الاصل ولا للاحتجاج بها كهذه الآيات

كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الا صاحب هذا القبر ، ويشير الى الروضة الشريفة

وقال الامام الشافعي في كتابه الأم في أثناء كلام « وهـذا يدل على أنه ليس لأحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول الا بالاستدلال » وله أقوال في هذا المعنى كثيرة يكفينا منها هذا النص الصريح فيما نحن فيه وأتباعه من أكثر الناس أقوالا في ذلك وكذلك الحنابلة ولذلك كثر المجتهدون ممن تفقه في هذين المذهبين

وأما الامام أحمد فهو أشد الناس براءة من القول بغير دليل وقد سأله أبو داود عن الأوزاعي ومالك أيهما أتبع : فقال لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ، ما جاء عن النبي وأصحابه فخـذه : وقال « لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا » أي من الدليل . وما قاله هؤلاء الأئمة المهتدون هو ما أجمع عليه السلف ولكن الغلو في تعظيم الانسان لشيوخه وشيوخهم وثقته بهم من أسباب ترك الدليل الى أقوالهم بل من أسباب اتباعهم في أقوالهم وأفعالهم . وكم من رجل جهول قلده الجاهلون لأنهم اعتقدوا صلاحه فقالوا ما كان لمثله في تقواه وورعه ان يقول أو يعمل الا ما يعلم انه حق . وهذا قول مردود بلا نزاع فالصالح غير معصوم فقد يخطئ جهلا وقد يخطئ سهوا وعمداً

﴿ حكم من رد كلام العلماء الذي لا دليل عليه ﴾

(ج ٨) حكم من رد كلام العلماء لأنه لا دليل عليه انه اتبع الحق واهتدى بالقرآن وسار على طريقة السلف الصالحين والائمة المرضيين كما علمت

﴿ الاعتقاد بولاية شخص معين ﴾

(ج ٩) إن ما يعتقده عوام المسلمين في الولاية والأولياء في هذه الأزمنة لم يكن معروفا في صدر الاسلام بالمرة فلم يكن الصحابة يدعون بعض عبادهم بالاولياء . والولي في اللغة الناصر والصديق ومتولي الأمر وجاء في القرآن ان لله أولياء وللشيطان أولياء وان المؤمنين بعضهم أولياء بعض والكفار والمنافقين بعضهم أولياء بعض . فولي الله من ينصر دينه ويقيم سنته وشريعته وولاية المؤمنين بعضهم لبعض عبارة عن

تناصرهم في إعلاء كلمته وإقامة دينه وشريعته · والله وليّ الذين آمنوا بمعنى أنه هو الذي يتولى أمورهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير . فمن اتخذ وليا يعتقد أنه يتولى بعض أموره في غير ما يتعاون به الناس بعضهم مع بعض فقد اتخذه شريكا كما علمت من آية الزمر التي مرت في جواب السؤال السادس · ومثلها آيات كثيرة

ليس لمؤمن ان يعتقد جزما ان أحداً من الناس بعينه قد مات وهو وليّ لله تعالى مرضي عنده له في دار رضوانه ما وعد به أولياءه، لأن ذلك تعدٍّ على علم الغيب وقول على الله بغير علم · وقد أجمع العلماء على أن الخاتمة مجهولة وانه لا يقطع لأحد بالموت على الايمان وبكرامة الله له بالجنة إلا بخبر عن الشارع وانما نحسن الظن بجميع المؤمنين ومن عرفنا استقامته على الشرع كان ظننا فيه أحسن ورجاؤنا له بفضل الله أكبر. أخرج البخاري في صحيحه عن أم العلاء — امرأة من الانصار — أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت فطار لنا — أي وقع في سهمنا — عثمان بن مظعون — من أفضل المهاجرين وأبرارهم وخيارهم ومن شهد بدراً فاشتكى فمرضناه حتى اذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما يدريك ان الله أكرمه» فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير · ما أدري وانا رسول الله ما يفعل بي» قالت فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً : فهذا الحديث الصحيح يكوي في قطع ألسنة المفتاتين على الله الذين يجزمون بأن فلانا وفلانا ممن يعرف وممن لا يعرف من أولياء الله المكرمين عنده قطعا وأن لهم فوق ذلك السلطان في عالم الغيب وعالم الشهادة وما أجهلهم بالله وكتابه وبهدي رسوله وسيرة سلف الأمة الذين نقل عنهم في الخوف وعدم الجزم بأمر الآخرة ما فيه عبرة للجاهلين لو كانوا يوعظون به حتى ان المبشرين بالجنة من الصحابة ما كانوا يأمنون مكر الله وكانوا يقولون ما يدرينا ان النبي صلى الله عليه وسلم بشرنا بشرط الاستقامة على ما كنا عليه معه وأننا غيّرنا من حيث لا ندري

﴿خلق آدم وعيسى﴾

لم يكتف الشيخ قاسم محمد أبو غدير بما ذكرنا في هذه المسألة التي سأل عنها فكتب الينا في ١٤ المحرم يطلب نشر أسئلته التي كان أرسلها الينا بنصها والجواب عنها بالتفصيل في أول جزء يصدر بعد كتابه هذه «لأهمية الموضوع» وانا لانرى الموضوع بالعين التي رآها بهوانما يصح ان يعنى به هذا الاعتناء اذا ثبت مذهب دارون بطريق القطع الذي لايحتمل الشك والارتياب فعند ذلك يجب علينا نحن المسلمين ان نبذل جهدنا في تأويل الآيات الواردة في خلق آدم بمثل ماتقدمت الاشارة اليه أو بغيره فان لم نقدر انتصر دارون على القرآن وأثبت بطلانه (حاش لله). أما الآن فاننا نعتقد في المسألة مايدل عليه ظاهر الآيات من غير تأويل وأما ماذكره الدكتور محمد توفيق أفندي صدقي من التأويل فهو في باب دفع الشبهات والرد على المعترضين ولا يكلف السائل ولا غيره ان يتخذه عقيدة لهذا نرى أن لاحاجة الى التطويل الذي يطلبه [illegible] لا فائدة له [illegible] لا يترك الظاهر ويصار الى التأويل الا اذا عرضت له الشبهة أو أوردت عليه وما كان السائل ليقيد في ابطال تأويل يراد به تثبيت عقيدة مشتبه أو رد شبهة معترض فليتدبر. هذا وإن أسئلته قد جملت في الفا من الورق بعد ذلك الجواب المجمل وقد أردنا مراجعتها عند كتابة هذه الكلمات فلم نظفر بها

﴿تتمة أجوبة الاسئلة الجاوية في السماع﴾

(تنبيه) رأى بعض فضلاء المصريين أننا أطلنا في هذه الاسئلة أكثر مما تستحق وذلك أنه يندر ان يوجد في مصر من يتحامى السماع ولكن الجمود في كثير من البلاد على تقليد المتأخرين لايلين الا بأكثر من هذا والمنار ليس خاصا بالمصريين

﴿البحث في السماع من جهة القياس الفقهي﴾

يرى القارىء المنصف ان ماقاله الشوكاني (ونشرناه في الجزء الماضي) هو صفوة التحقيق الأنيق إدخاله السماع على الاطلاق باب الشبهات نظرا فان ماثبت في الصحيح من سماع النبي (ص) وأكابر أصحابه يدفعه فانهم أبعد الناس عن الشبهات وقد سمعوا مع تسميتهم ذلك بمزمار الشيطان وباللهو . والذي يظهر من

أحاديث الاباحة التي تقدمت أن قول من قال باستحباب السماع أو ندبه ينبغي أن يحمل على ما يكون في الاوقات والحالات التي يستحب فيها تحري السرور كالعرس والعيد وقدوم الغائب . وأن السماع فيما عدا هذه الاوقات والحالات مباح لذاته بشرط عدم الاسراف فيه فان الإسراف ضارٌ بالأخلاق مسقط للمروءة وهذا هو مراد الامام الشافعي رضي الله عنه بقوله في الام ان الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وقوله ان صاحب الجارية اذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته : وقد يقال انه يقرب أن يكون ديوثا لأنه اذا لم يغر على جاريته أن تطرب الناس بصوتها فربما كان لا يغار عليها مطلقا

وقولنا مباح لذاته يتفق مع قول الغزالي ومن وافقه بمنع ما كان فيه تشبه بأهل الفسق في شعارهم الخاص بهم قال في الاحياء « ولهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه وصبوا فيها السكنجبين ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم فيأخذون من الساقي ويشربون ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم وان كان المشروب مباحا في نفسه لأن في هذا تشبها بأهل الفساد بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر قزعا على الرأس في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتياد اهل الصلاح ذلك فيهم . فلهذه المعاني حرم المزمار العراقي والاوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق اليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن في معناها فبقي على أصل الاباحة قياسا على أصوات الطيور وغيرها . بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً . وبهذا تبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها الا ما في تحليله فساد قال الله تعالى (٧: ٣٢ قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) فهذه الأصوات لا تحرم من حيث هي أصوات موزونة وانما تحرم بعارض

آخر » اه كلام الغزالي وتكلم في مكان آخر عن العوارض

فهذا القول هو أحسن ماقيل في القياس كما أن القول السابق هو أحسن ماقيل في السنة وأجمعه . وأنت تعلم ان التشبه بأهل السكر والخلاعة انما حرم لما فيه من مهانة المؤمن وضعته فاذا سمع المؤمن الأوتار في مجلس لايعد فيه متشبها بأهل السكر والفسق كأن يسمعه في بيته أو بيت آخر بصفة لاتشبه فيها فلا مجال للقول بالتحريم فالأمر في الأوتار كالأمر في لبس القباء (هو القفطان في عرف المصريين والقنباز في عرف الشاميين) فقد حرمه الغزالي في بلاد وأباحه في أخرى لعلة التشبه وعدمها وما قاله في إباحة سائر الآلات يدخل فيه آلات الموسيقى العسكرية وأمثالها فتبين بهذا انه لاوجه في القياس الصحيح لتحريم سماع المعازف على الإطلاق كما انه لاوجه له في كتاب ولاسنة بل الوجه ما تقدم . ومن العوارض التي لا بد من التنبيه اليها كون السماع يهيج السامع فيدفعه الى المعاصي فمن علم من نفسه ذلك حرم عليه . هذا ما يليق بدين الفطرة الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة والله أعلم وأحكم

﴿ الكلام على عبارات الأسئلة ﴾

أما قول السائل في السؤال الاول إن الغزالي حرم ماهو شعار أهل الشرب الخ فيقال فيه ان ماصرح به الغزالي هو أن الأصل في سماع الغناء والمعازف الحل كما تقدم وتحريم سماع الأوتار لعلة التشبه بالفساق يزول بزوال هذه العلة كما قال في لبس القباء . وما ذكره فيه عن ابن حجر من العلة الأخرى وهي كون اللذة بالسماع تدعو الى الفساد فهو محل نظر اذ السماع كما قال بعض العلماء انما يحرك الساكن ويستخرج الكامن فمن لم يكن من أهل الفساد لا يدعوه الى الفساد وأشد السماع تأثيرا في النفس سماع ألحان النساء وقد سمعها الشارع وكبار أصحابه وقد أطال الغزالي في بيان اختلاف الحكم باختلاف أحوال الاشخاص وان ذلك لا يمنع ان الاصل فيه وفي جميع اللذات الاباحة . والحديث الذي أورده فيه عن كتاب النصائح وهو « اذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » وذكر منها اتخاذ القينات والمعازف وفسرها بالملاهي من الاوتار والمزامير لم تذكر في أحاديث

الحظر لشدة ضعفه ولأجل الكلام عليه هنا فنقول قد رواه الترمذي عن صالح بن عبد الله عن الفرج بن فضالة الشامي عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب مرفوعا

« إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » قيل وما هي يارسول الله قال « اذا كان المغنم دولا والامانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه وارتفعت الاصوات في المساجد وكان زعيم القوم ارذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القيان والمعازف ولعن آخر هذه الامة أولها فارتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا أومسخا »

والفرج بن فضالة قد تكلم فيه سئل الدار قطني عنه فقال ضعيف فقيل له نكتب عنه حديثه عن يحيى بن سعيد « اذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة » الخ ؟ فقال هذا باطل : قيل من جهة الفرج قال نعم . وقال أبو داود سمعت أحمد يقول : اذا حدث عن الشاميين فليس به بأس ولكنه عن يحيى بن سعيد عنده مناكير : وقال أبو حاتم لا يحل الاحتجاج به وقال مسلم منكر الحديث : ثم ان الحديث لايدل على تحريم سماع الأوتار لأن الخصال التي ذكرت فيه منها ما هو فضيلة كبر الصديق ولكن مجموعها سبب للهلاك وان لم يصح الحديث لأنها من السرف في الترف وفساد الاخلاق واضاعة المصالح العامة والخاصة

﴿ ابن حزم وابن طاهر الحافظان ﴾

واماما ذكر في السؤال الثاني عن ابن حجر الهيثمي من الطعن في ابن حزم وفي ابن طاهر فهو مما اعتاد ابن حجر مثله وهو معدود عليه من غلوه في التعصب لاقوال علماء مذهبه وابن حجر ليس من طبقة ابن حزم الحافظ الامام المجتهد ولا من طبقة ابن طاهر وانما يعرف قدر مثل ابن حزم الحافظ ابن حجر العسقلاني امام المحدثين في زمنه وبعد زمنه ، وقد ذكر له ترجمة طويلة في طبقات الحفاظ قال فيها : وكان اليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم وكان شافعيا ثم انتقل الى القول بالظاهر ونفي القول بالقياس وتمسك بالعموم والبراءة الاصلية وكان صاحب فنون فيه دين وتورع وتزهد وتحر للصدق — ثم قال — وقال صاعد بن

أحمد كان ابن حزم أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر ومعرفته بالسنن والآثار. أخبرني ولده الفضل انه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مئة مجلد تحتوي على نحو من ثمانين ألف ورقة . قال الحميدي كان أبو محمد حافظا للحديث وفقهه مستنبطا للاحكام من الكتاب والسنة متقنا في علوم جمة عاملا بعلمه ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ، وكان له في الادب والشعر نفس واسع وباع طويل ما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه الخ ثم نقل الحافظ ابن حجر عن شيخ الاسلام العز بن عبد السلام امام الشافعية في عصره انه قال ما رأيت في كتب الاسلام في العلم مثل المحلى لابن حزم والمغني للشيخ الموفق : ثم قال الحافظ في أواخر ترجمته قلت ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة الخ

واما ابن طاهر فقد ذكره في طبقات الحفاظ أيضا وبين أصل هذه الكلمة (إباحي) التي قالها فيه ابن حجر الهيتمي الفقيه مع ألفاظ أخرى تعد من السباب لم يقل بمثلها أحد . قال الحافظ في ترجمته : وقد ذكره الدقاق في رسالة فحط عليه وقال كان صوفيا ملامتيا سكن الري ثم همذان له كتاب صفوة التصوف وله أدنى معرفة بالحديث : قلت هو أحفظ منك بكثير ياهذا . ثم قال ذكر عنه الاباحة قلت بل الرجل مسلم معظم للآثار وانما كان يرى اباحة السماع لا الاباحة المطلقة التي هي ضرب من الزندقة اه فهل يسلم مسلم بعد قول الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب القول الفصل والحكم العدل في الرجال ما قاله ابن حجر الفقيه الهيتمي من انه مجازف اباحي كذاب رجس العقيدة نجسها ؟ اللهم ألهم هؤلاء الائمة الذين يسبهم ابن حجر الهيتمي المتعصب لتقليده العفو عنه يوم الدين .

واما حكاية الحافظ ابن طاهر عن الشيخ أبي اسحق الشيرازي إباحته العود فاذا لم تصح عنه فقد صحت عمن هم أعظم منه . قال الزبيدي في شرح الاحياء بعد نقل تحريمه عن المذاهب الأربعة : وذهبت طائفة الى جوازه وحكي سماعه عن عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو

بن العاص وحسان بن ثابت رضي الله عنهم وعن عبد الرحمن بن حسان وخارجة بن زيد ونقله الاستاذ أبو منصور عن الزهري وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والشعبي وعبد الله ابن أبي عتيق وأكثر فقهاء المدينة . وحكاه الخليلي عن عبد العزيز بن الماجشون وقدمنا ذلك عن ابراهيم وابنه سعد وحكاه الاستاذ أبو منصور أيضا عن مالك وكذلك حكاه الفوراني في كتابه العمد . وحكى الروياني عن القفال أنه حكي عن مالك انه كان يبيح الغناء على المعازف وحكاه الماوردي في الحاوي عن بعض الشافعية ومال اليه الاستاذ أبو منصور . ونقل الحافظ ابن طاهر عن الشيخ أبي اسحق الشيرازي أنه كان مذهبه وأنه كان مشهورا عنه وأنه لم ينكره عليه أحد من علماء عصره . وابن طاهر عاصر الشيخ واجتمع به وهو ثقة وحكاه عن أهل المدينة وادعى أنه لاخلاف فيه بينهم واليه ذهب الظاهرية حكاه ابن حزم وغيره . قال صاحب الامتاع ولم أر من تعرض لكراهة ولا لغيرها الا ما أطلقه الشافعي في الأم حيث قال : وأكره اللعب بالنرد للخبر أكثر مما أكره اللعب بشيء من الملاهي . فاطلاقه يشمل الملاهي كلها ويندرج فيه العود وغيره وقد تمسك بهذا النص من أتباعه من جعل النرد مكروها غير محرم ، وما حكاه المازري في شرح التلقين عن ابن عبد الحكم انه قال إنه مكروه ، ونقل عن العز بن عبد السلام أنه سئل عنه فقال أنه مباح وهذا هو الذي يقتضيه سياق المصنف هنا (يعني الغزالي في الاحياء) اه كلام الزبيدي ومنه ومما سبق عن نيل الأوطار يعلم أن النقل عن الصحابة والتابعين وغيرهم من العلماء لم ينفرد به ابن حزم وابن طاهر ولو انفردا لاحتج بنقلهما الاثبات وهما من الأثبات مالا يحتج بنفي ابن حجر الهيتمي وهو ليس من الحفاظ ولم يطعن في أسانيدهما لينظر في طعنه . وسقط بهذه النقول ماجاء في الاسئلة من ذكر الاتفاق على تحريم العود ونحوه وتفسيق من يسمعه

واما سؤاله عن جواز نسبة ذلك الى العلويين الاتقياء فجوابه ان النقل لا يكون بالرأي فان نقل ذلك ثقة صدقناه وحملنا سماعهم على اعتقادهم الحل كما نقل ذلك عمن هم خير منهم وان كان غير ثقة لم نصدقه

واما سؤاله عن بعض علماء الرسوم هل يقتدى بهم اذا سمعوا العود فنقول

انهم لا يقتدى بفعلهم في شيء مطلقا وانما يؤخذ بنقلهم ورواياتهم في بيان حكم الله ان كانوا ثقات صادقين · كذلك يقال في الصوفية الذين ذكرهم في السؤال الخامس من عرفت استقامته وتقواه منهم فلا يجوز الطعن في دينه لسماعه العود من غير ان يتشبه بأهل الفسق والفجور فيما هو من شؤونهم فيتهم بحيث يظن انه منهم فمن فعل هذا فقد جنى على نفسه وأهانها فلا يلومن من أساء الظن به

﴿ خلاصة القول في السماع ﴾

(١) لم يرد نص في الكتاب ولا في السنة في تحريم سماع الغناء أو آلات اللهو يحتج به (٢) ورد في الصحيح ان الشارع وكبار أصحابه سمعوا أصوات الجواري والدفوف بلا نكير (٣) إن الاصل في الاشياء الاباحة (٤) ورد نص القرآن بإحلال الطيبات والزينة وتحريم الخبائث (٥) لم يرد نص عن الأئمة الأربعة في تحريم سماع الآلات (٦) كل ما ضار في الدين أو العقل أو النفس أو المال أو العرض فهو من المحرم ولا محرم غير ضار (٧) من يعلم أو يظن ان السماع يغريه بمحرم حرم عليه (٨) ان الله تعالى يحب ان تؤتى رخصه كما يحب ان تؤتى عزائمه (٩) ان تتبع الرخص والاسراف فيها مذموم شرعا وعقلا (١٠) اذا وصل الاسراف في اللهو المباح الى حد التشبه بالفساق كان مكروها أو محرما

آثار علمية أدبية

﴿ نقد شرح ديوان أبي تمام — تابع لما في الجزء الاول ﴾

(ص١٠٤) أظن دموعها سَنَن الفريد وهى سلكاه من نحر وجيد

(سَنَن الفريد وجه العقد) يقال امض على سننك أي على وجهك وتنح عن سَنَن الجبل أي وجهه ولا يقصد الشاعر الى هذا هنا وانما قصد الى تشبيه قطرات الدموع بحبات العقد الفريد التي عبر عنها بالسِنَن وهي جمع سنة ككبير جمع جبرة . والسنة الحبة من رأس الثوم وهي بيضاء مدملكة ملساء فيحسن تشبيه حبات

العقد بها واطلاق اسماعيليا . ولا يضر التشبيه خبث رائحة السن لانه لا يلاحظ فيه جميع عوارض المشبه به وهذا طلع النخل تشبه به الثنايا ورائحته رائحته

(ص١٠٤) رآنا مشمري أرق وحزن ويغشيه لدى الركب الهجود

(الهجود من هجد اذا أناخ) هجد نام والركب الهجود النائم وهو ما أراده الشاعر فهو يقول ان الطيف تحامى زيارته لكونه حليف ارق وحزن والطيف انما يأوي الى الركب النائم . وقد ينيخ الركب ولا ينام

(ص١٠٩) اخو الحرب العوان اذا أدارت رحاها بالجنود على الجنود

(العوان التي قوتل فيها مرة) صوابه مرتين أي مرة بعد أخرى . وفسّر الشارح العوان أيضا في ص١٤٣ كما فسرها به هنا .

(ص١٠٥) بنصر ابن منصور بن بسام انفرى لنا شظف الايام في عيشة رغد

(انفرى انصلح) انفرى هنا بمعنى انكشف وتقلص واضمحل وزال راجع ما قلناه عن هذه الكلمة في قول الشاعر فيه انكشف عن الغيابة الخ

(ص١٣٨) فطوسه هامه فطاو فراشها شهاب بموت في اليدين مجرد

(الفراش موقع اللسان في قعر الفم) أراد الشارح ان الفراش مفرد على وزان كتاب وان معناه ما ذكره وليس كذلك فان شاعرنا أراد بقوله ما يريده أهل اللغة في قولهم أطار فراش رأسه وفراش الرأس بفتح الفاء جمع فراشة بفتحها أيضا عظام رقيقة تبلغ القحف ويقال لها فراش الدماغ والفراش أيضا كل رقيق من عظم أو حديد.

(ص١٣٩) نفسوك فالتمسوا مداك فحاولوا جبلا يزل صفيحه بالمصعد

(بالمصعد أي وقت الطلوع) لا معنى لكون وجه الجبل وسطحه يزلق بوقت الطلوع وانما المعنى ان من أراد بلوغ المنزلة التي بلغها الممدوح كان كمن يحاول الرقي في جبل يزلق سطحه بالمصعد فيه فهو لا يزال في عناء وخيبة. فالمصعد اسم فاعل من أصعد اذا استقبل أرضا أرفع من الاخرى . ونظير قول شاعرنا قول الآخر « كما زلت الصفواء بالمتنزل » أي كما يزل النازل على الصخرة الملساء

(ص١٤٥) حتى التوى من نقع قسطلها على حيطان قسطنطينة إعصار

(النقع رفع الصوت) القسطل ليس له صوت مرتفع وانما المراد بالنقع هنا

الغبار وتكون اضافة النقع الى القسطل الذي معناه الغبار أيضا من قبيل الاضافة البيانية

(ص١٤٨) واذا القسي المرجع طارت نبلها   سوم الجراد يشيح حين يطار

(السوم العلامة) السوم هنا مصدر سامت الطير على الشيء سوما حامت وهو مفعول مطلق لطارت من غير لفظه يقول اذا انتثرت النبال واشبه انتثارها حومان رجل الجراد الذي هيج فجدّ في الطيران. وجواب الشطر البيت بعده

(١٥١) لولا أحاديث أبقتها أوائلنا   من السدى والندى لم يعرف السمر

(السدى ندى الليل) كما يطلق كل من السدى والندى على مايسقط في الليل يطلق أيضا على المعروف والجود ومنه اسدى اليه أحسن اليه والمراد منهما هنا المعنيان الاخيران قطعا ولايمكن ان يراد بالسدى ندى الليل.

(ص ١٥٨) مصفرة محمرة فكأنها   عصب تيمن في الوغى وتمضر

(العصب صبغ ينبت في اليمن) العصب ضرب من برود اليمن ذو وشي ونقوش وقد أراد الشاعر ان [illegible] على الارض من أزاهيره حللا ملونة تحاكي تلك البرود اليمانية المسماة بالعصب لا [illegible] الصبغ نفسه

(ص١٥٨) بالثامن المتخلف اتسق الهدى   حتى تخير رشده المتحير

(اتسق سار على طريقة نظام عام) اتسق واستوسق الامر أو الهدى مثلا اجتمع وانتظم واستوى . واتساق القمر اكتماله واستواؤه . وقولهم وسق البعير أي ساقه لايقتضي جواز مجيء اتسق بمعنى سار مطاوعا له.

(ص ١٦٨)   للمجد مستشرف وللادب المجفوّ ترب وللندى حلس

(الحلس الكبير من الناس) ثم هو من جملة معانيه لكن أريد به هنا معنى آخر أصل الحلس مسح يبسط في البيت وتجلل به الدابة أو يكون تحت رحلها ثم استعير لمن يلازم الشيء ويعود نفسه عليه وفي الحديث كن حلس بيتك أي ملازما له وهم أحلاس خيل أي من أصحابها الآلفين لركوبها وفلان ليس من احلاسها فاستعملت استعمال حلف وترب في مثل قولهم زيد حلف فقر وعمرو ترب ادب. وقرنها بترب يؤيد كون المراد بها ماذكرناه.

(ص١٦٩) قالت وعيُ النساء كالخرس   وقد يصبنّ الفصوص في الخلس

(الفصوص احداق العيون) نم لكن ليس المراد بها هنا هـذا المعنى ؛ اصل الفص حجر الخاتم وتجوزوا فيه فقالوا انا آتيك بالامر من فصه أي أصله وحقيقته ومخرجه الذى خرج منه وقالوا أيضاً فلان حزاز الفصوص اذا كان مصيباً في رأيه وجوابه . وهذا المعنى هو الذى قصد اليه الشاعر يقول ان النساء على عين قد يقفن على الصواب ويصبن الرأي عرضاً ثم استشهد على قوله بما قاله المرأتان . فالفصوص في البيت بالنصب مفعول به

(ص ١٨١) واقاح منور في بطاح   هذه في الصباح روض أريض

(البطاح الصحارى) البطاح جمع بطحاء وهي مسيل واسع فيه دقاق الحصى كالأبطح والبطيحة . والبطاح غير الصحارى فان الصحراء الارض المستوية الواسعة وزاد بعضهم لانبات فيها

(ص١٨٣) لاتكن لي ولن تكون كقوم   عودهم حين يعجمون رضيض

(يعجمون يعضون) العجم أن تعض العود لتعرف صلابته ثم قالوا عجمت عود فلان أي بلوت أمره وخبرت حاله وفلان عوده صليب لاتحيك فيه العواجم أي لا تؤثر فيه الاسنان وقالوا في ضده فلان عوده رضيض فالعجم في البيت متجوز فيه عن الامتحان والاختبار .

(ص٢١٤) يؤوب الى شمائل منه ميث   قليلات الاماعز والبراق

(الاماعز الغزلان والبراق الحملان من الضأن) فاعل يؤوب يرجع الى السلام الذي أرسله الشاعر الى الممدوح يعني أن سلامه يرجع الى شمائل ممدوحه التي وصفها بقوله ميث اي لينة واصل الميث وصف للارض يقال أرض ميثاء واراض ميث . ولما وصف الشاعر شمائل ممدوحه بصفة الارض الحسنة ناسب ان ينفي عنها صفة الارض الرديئة فقال قليلات الاماعز والبراق الاول جمع أمعز وهي الارض الصلبة الكثيرة الحصى والثاني جمع برقة وهي الارض الغليظة ذات الحجارة والطين والرمل ومعنى القلة هنا العدم كما لا يخفى فهو يقول ان شمائل الممدوح وطباعه لينة وليست بخشنة ولا جافية

(ص ٢١٤) وتخط بزته قريت خلة   في درج ثوب اللابس المتوق

(الخلة الشق) الخلة هنا الحاجة والفقر والخصاصة أي قد يتنوق المرء في لباسه ويبالغ في تزيينها ويكون تحتها حاجة وعدم ولا كذلك الممدوح

(ص٢٢٨) ضنك اذا خرست أبطاله نطقت فيه الصوارم والخطية الذبل

(الذبل الصلبة) مادة الذبول تفيد معنى الدقة والضمور كقولهم ذبل الفرس ضمر وهزل بل ربما كان من معناها أيضاً اللين والفتور كقولهم ذبل النبات ذوى ولان وتذبل في مشيه تفتر فيه ثم أجروا المادّة على الرماح تجوزاً فقالوا قناذابل أي دقيق لاصق بالليط والليط جمع ليطة القشرة التي تكون على القصب وربما كان اللين مراداً أيضاً في ذلك الاستعمال المجازي لأن الرمح اذا لم يكن لينا لدنا تقصف ولم يصلح للطعن فالدقة واللين هما المفهومان من تلك المادة والمقصودان من ذبول الرماح . واذا أريد وصف الرماح بالصلابة قيل كما قال الحماسي

ولنا قناة من ردينة صدقة زوراء حاملها كذلك أزور

فقوله صدقة أي صلبة مستوية لاخارة هشة .

﴿ سماع لبعض كبار التابعين من باب الأدبيات ﴾

قال شارح الاحياء عند نقل الغزالي السماع عن جماعة من الصحابة والتابعين : وحسبك منهم سعيد بن المسيب و به يضرب المثل في الورع وهو أفضل التابعين بعد أو يس وأحد الفقهاء السبعة وقد سمع الغناء واستلذ سماعه : ثم ذكر عن ابن عبد البر بسنده ان سعيداً مرّ ببعض أزقة مكة فسمع الأخضر يغني في دار العاص بن وائل وهو يقول

تضوّع مسكا بطن نعمان اذ مشت به زينب في نسوة خفرات

فضرب سعيد برجله الأرض فقال هذا والله مما يلذ استماعه ثم قال سعيد

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها وأبدت بنان الكف في الجمرات

وعلت بنان المسك وصفا مرجلا على مثل بدر لاح في ظلمات

وقاضت ترائى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح من عرفات

وأثبت الحافظ ابن عبد البر أن هذه الابيات لسعيد لا للنميري . أقول وقابل ماعاب سعيد من توسيع جيوب النساء وابداء بنانهن بحال نسائنا اليوم . ويوم

جم يوم عرفة ثم ذكر شارح الاحياء عن الحافظ ابن طاهر بسنده أن عبد العزيز بن عبد المطلب قاضي المدينة كان يتغنى بهذه الابيات في مسجد الاحزاب

فما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها (١)
بأطيب من أردان عزة موهنا ... وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٢)
من الخفرات البيض لم تلق شقوة ... وبالحسب المكنون صاف نجارها
فان برزت كانت لعينك قرة ... وان غبت عنها لم يغمك عارها

فقيل له أصلحك الله أتغني بهذه الابيات في جلالك وشرفك أما والله لأحدثن بها ركبان نجد. قال الراوي فوالله ما اكترث بي وعاد يتغنى بهذه الابيات

فما ظبية أدماء خفاقة الحشا ... تجوب بظلفيها بطون الخمائل (٣)
بأحسن منها اذ تقول تدللا ... وأدمعها تذرين حشو المكاحل
تمتع بذا اليوم القصير فانه ... رهين بأيام الشهور الأطاول

قال فندمت على قولي له وقلت أصلحك الله أتحدثني في هذا بشيء؟ فقال نعم حدثني أبي قال دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهم) وأشعب يغنيه بهذا الشعر:

مغيرية كالبدر سنة وجهها ... مطهرة الأثواب والعرض وافر
لها حسب ذاك وعرض مهذب ... وعن كل مكروه من الامر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ريبة ... ولم يستملها عن تقى الله شاعر

فقال له سالم زدني فقال:

ألمت بنا والليل داج كأنه ... جناح غراب عنه قد نفض القطرا
فقلت أعطار ثوى في رحالنا ... وما احتملت ليلى سوى ريحها عطرا

فقال سالم أما والله لولا أن تداوله الرواة لاجزلت جائزتك فلك من هذا الامر مكان اه

---

(١) الجثجاث نبت والقط ثقيل والعرار بهار أصفر قيل هو النرجس البري
(٢) موهنا وقت وهن الليل وهو حين يدبر اوما بعد نصفه أو بعد ساعة منه (٣) خفاقة الحشا لينته والخفاف اللحم اللين تحت اللهاة

﴿ رسالتان في قراءة القونغراف والسكورتاه ﴾

اطلعنا على هاتين الرسالتين اللتين كتبهما وطبعهما في هذه الايام الشيخ محمد بخيت الأزهري المشهور بمصر وقال انه استنبطهما استنباطاً وقد رأينا فيهما الغريب من العلم في الكلام والطبيعة وتقويم البلدان والحديث والفقه ـ ذكر في الكلام من أمشاج المسائل مالا محل لذكره هنا ووصف القونغراف وصف من لم يره ولم يعرف شيئا من علم مخترعيه ـ وقال في أول الرسالة الثانية مانصه : «وقد ورد علينا خطاب من بعض العلماء المقيمين بالاناضول بالروملي الشرقي بولاية سلانيك يتضمن السؤال عما يأتي ويطلب الاجابة عنه فأجبناه لطلبه وقلت وبالله التوفيق » اه وياليت الاستاذ أطلع أحد أولاده الذين يتعلمون في المدارس على استنباطه قبل الطبع لعله ينبهه الى ان استنباط سائل مقيم في الاناضول وهو عدة ولايات في آسيا — في الروملي الشرقية من ولايات أوربا التي دخلت في إمارة بلغاريا — في ولاية سلانيك من مقدونيا — استنباط يرده كل من يعلم ان إقامة الرجل في ولايات مختلفة في قارتين مختلفتين ضرب من المحال ونتهم الشيخ المستنبط بأنه أراد استنباط حيلة تدل على أنه مشهور في البلاد بالعلم مقصود بالاستفتاء فلم ينجح لعدم إلمامه بالجغرافيا التي مابرح يذمها وينفر عنها حتى انتقمت منه لنفسها وعلمته ان الاجتهاد لا يتم اليوم بدونها

ومن غريب العلم بالحديث والفقه في الرسالة الثانية قول المستنبط ان الإمامة الكبرى يجوز أن يكون فيها الامام كافراً أي يجوز أن يكون خليفة المسلمين الذي يقلد القضاء ويأذن بصلاة الجمعة كافرا واستدل على ذلك بحديث جابر بن عبد الله عند ابن ماجه « ألا لا يؤمنّ امرأة رجلا ولا يؤمّ أعرابي مهاجرا ولا يؤمّ فاجر مؤمنا الا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه »

نقول الرواية هكذا « لا تؤمنّ امرأة رجلاً ولا أعرابي مهاجراً ولا يؤمنّ فاجر مؤمنا الا أن يقهره بسلطان يخاف سيفه أو سوطه » والحديث منكر أو موضوع فان في اسناده عبد الله بن محمد التميمي قال البخاري منكر الحديث وقال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به وقال وكيع يضع الحديث وقد تابعه عبد الملك بن

حبيب في الواضحة وهو متهم بسرقة الحديث وتخليط الأسانيد وقال الحافظ ابن عبد البر انه أفسد اسناد هذا الحديث . وفيه أيضا علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف .

وكما لا يصح الاحتجاج به والاستنباط منه لفساد سنده لا يصح من جهة معناه فانه وارد في امامة الصلاة لا في الامامة الكبرى وهي الخلافة كما زعم المستنبط الجديد فان المرأة والأعرابي المقيم في البادية وراء أتمامه ليسا مظنة لتقلد الامامة الكبرى فينهى عن تقليدهما والمراد بالفاجر العاصي الفاسق لا الكافر ولذلك تكلم السلف في الصلاة وراء الظالمين كالحجاج وغيره ولا محل لبسط ذلك الآن .

وقد سرنا ان الشيخ سمى رأيه استنباطا وقال في أول الرسالة الثانية :

« والحمد لله الذي وفق من شاء من عباده لاستنباط الاحكام من صحيح الأدلة ، ولم يخص ذلك بزمان دون زمان بل جعل ذلك دائما مستمرا باستمرار الأهلة » فقد أثبت أن الاجتهاد جائز في هذا الزمان خلافا لما في كتب مذهبه من القول باقفال بابه وانقراض أهليه — فظاهر انه لا يعني الاجتهاد في المذهب والاستنباط منه فقد استنبط هو مسألة من الحديث ولكنه اخطأ اذ لم يبذل شيئا من جهده في معرفة سنده ولا في فهمه وقد علمت انه منكر أو موضوع وانه لا يدل على ما قال فعسى ان يتروى في مثل ذلك عند محاولة استنباط آخر . وربما عدنا الى انتقاد الرسالتين

(مجلة جمعية الملاجئ العباسية • ومكارم الاخلاق الاسلامية)

كان لمجلة مكارم الاخلاق الاسلامية عند ابتداء ظهورها رواج عظيم وشهرة أكبر منها حتى كان يطبع منها في السنة الأولى والثانية بضعة آلاف ثم لم يلبث الناس ان انفضوا من حولها وأعرضوا عن قراءتها حتى خفت صوتها وكاد يخفى ذكرها لولا أن بادرت جمعية المكارم في الاسكندرية الى كفالتها ولكن عنايتها بها كانت ضعيفة حتى اتحدت بجمعية الملاجئ العباسية ففي فاتحة هذا العام صدرت المجلة بالاسم الذي رأيت في العنوان مطبوعة طبعا متقنا على ورق جيد وقد تنوعت مباحثها ومسائلها المفيدة بعد ان كان أكثر ما ينشر فيها منقولا من الكتب والجرائد وجعلت هدية للمشتركين في جمعية الملاجئ العباسية وأما قيمة الاشتراك السنوي لغيرهم فثلاثون قرشا في مصر و ١٠ فرنكات في سائر الاقطار . ويقبل من طلاب العلم نصف

القيمة · وكل ما يأتي من ربح المجلة — ان وجد بأريحية محبي الخير — فهو لمساعدة الايتام والفقراء والعجزة في تلك الملاجئ · فعسى ان تصادف من الاقبال في حياتها الجديدة ما يبشر أعضاء الجمعية الفضلاء بأن داعية الخير والبر في المسلمين تقوى وتنمو عاما بعد عام بل يوما بعد يوم · ومكاتبات المجلة والجمعية تكون مع صاحب السعادة خليل حمدي باشا حماده رئيس الجمعية في الاسكندرية

(مجلة الشتاء)

صدر الجزء الرابع من هذه المجلة قبل صدور هذا الجزء من المنار وبه تمت سنتها الأولى مؤلفة صفحاتها من ٢٤٠ صفحة · وفي هذا الجزء من المقالات والمباحث الأدبية والمقاطيع الشعرية والنكات الفكاهية ما يكون لقراء المجلة في هجير الصيف الذي تحتجب فيه كبرد الشتاء في مصر — برداً وسلاما — يتنعمون به فلا ينسون لذته حتى تسفر عليهم حين تحتجب الشمس في أول الشتاء الآتي، اطال الله خدمة منشئها لفنون الآداب [illegible]

(لفظ الملاحظة واعتقاد المنار لتقرير الشيخ شاكر)

ذكرنا في انتقادنا عبارة تقرير مشيخة الاسكندرية ان لفظ «لاحظ» لا يتعدى بعلى وصاحب التقرير يكثر من قول «لاحظ عليه» فهو خطأ: كذا قلنا ففهم بعض الادباء ان انتقادنا هذا خاص بقوله « وقد يلاحظ المطلع على احصائية العام المقبل » لأن هذه العبارة هي التي ذكرت في المنار عند الانتقاد فقال هذا الاديب ان « على » في هذه العبارة متعلق بلفظ المطلع وهو صحيح · وأقول ان عبارة المنار المشار اليها كانت موجهة بالمناسبة الى ما قلنا انه يكثر في كلامه ولكن سقط من الاصل شيء عند الطبع وأصل العبارة هكذا : « ولاحظ مفاعلة من لحظ للمشاركة وهو النظر بمؤخر العين · وتستعمل الملاحظة مجازا بمعنى المراعاة ولا يظهر هنا المعنى الحقيقي ولا المجازي · ولاحظ لا يتعدى بعلى » الخ فسقط ما بين لاحظ الاولى والثانية ومنه يعلم ان الانتقاد على تعدية لاحظ بعلى ذكر في السياق ولم يكن هو المقصود بالذات فينبغي تصحيح العبارة وموضعها س ٢١ ص ٩١٨ م ٩

باب الأخبار والآراء

﴿مملكة مراكش ومؤتمر الجزيرة﴾

كتبنا في العدد الخامس عشر من سنة المنار الاولى الذي صدر في ٩ صفر سنة ١٣١٦ أي منذ ثمان سنين كاملة انذارا لسلطان مراكش بأن طوفان اوربا لا بد ان يفيض على بلاده فيغمرها اذا هو لم يبادر الى اصلاح شأنها بالتربية والتعليم اللذين تقتضيهما حالة العصر لاسيا تعليم الفنون العسكرية والمدنية والاقتصادية ونصحنا له بأن يستعين على ذلك بسلطان الدولة العثمانية · ثم أعدنا النذر والنصائح ولكن القوم في غمرة ساهون ولا يشعرون ولا هم يذكرون ، وانما يعتمدون على أهل القبور في دفع الضر أو تحويله عنهم · كما علمت من التجائهم الى قبر سيدي ادريس عندما أرادت فرنسا الاعتداء عليهم [illegible] (باللطيف) مئة ألف مرة · وقد كان من أسباب استمرارهم في الخذلان ما كان من عاهل الالمان يومئذ وايعازه الى السلطان عبد العزيز بطلب عرض اصلاح مراكش على مؤتمر أوربي فانعقد المؤتمر في الجزيرة من حواضر أسبانيا فاتفق أعضاؤه على وجوب انشاء مصرف (بنك) لتلك المملكة وانشاء شرطة (بوليس) يدير أمرها ضباط أوربيون. أما المصرف فلابتلاع أموال الحكومة وأما الشرطة فلتأمين تجارة أوربا التي يبتلعون بها أموال الاهالي ويتمكنون بها من ادارة البلاد ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون

وقد طال التنازع بين فرنسا وألمانيا في شأن حصص كل دولة في المصرف وفي كون ضباط الشرطة من الفرنسيس والاسبانيين أم من سائر الدول وفي رئيس هؤلاء الضباط ونحو ذلك مما لا غرض لنا في بيان جزئياته لأننا لا نكتب لأجل احصاء وقائع التاريخ ولا لأجل تفكيه القراء · ان نكتب الا لأجل بيان طرق العبرة للمسلمين

مهما اختلف القوم وتنازعوا فهم اقرب الى الاتفاق على التوفيق بين مصالحهم المتعارضة منا على مصالحنا المتحدة · وكل ما يتفقون عليه فهو إضعاف لسلطتنا بل تقليص لظلها عن بلادنا ولو بالتدريج الذي هو خير لهم اذ لا يحتاجون فيه الى بذل دمائهم وأموالهم ·

ومن غريب جهلنا ان نعد أنفسنا ظافرين كما طلبوا منا تجديد نفوذهم في بلادنا وازالة نفوذ لنا منها فنالوا بعضه كما جرى لنا في مسألتي كريت ومكدونية وكما سيجري في مراكش بعد هذا المؤتمر الذي يجعل لهم حقا رسميا في القبض على ادارة البلاد وأموالها .

اذا أرجعت المسببات الى أسبابها تبين لك ان الذي حال بين أهل مراكش وبين الانتفاع بما ذكرناه وذكرهم به غيرنا هو الجمود على التقاليد والاتكال على أصحاب القبور فهاتان العلتان هما المانعتان من فهم الحق ومن كل تغيير يدعى اليه المقلد للآباء ، المفوض أموره الى من اتخذهم اولياء .

﴿ مسألة العقبة ﴾

كان أهل الرأي في الدولة وأصحاب النفوذ في المابين يرون منذ شرع في سكة الحجاز الحديدية أن من الضروري احداث ناشط لها ينتهي بفرضة العقبة في البحر الاحمر وقال بعضهم اذا عجزنا عن ايصال السكة الى الحرمين فان ربحنا من السكة لا يكون قليلا اذا استفدنا من ذلك بايصالها الى العقبة . وقد اجتهد الصدر الاعظم ومختار باشا الغازي وعزت باشا العابد وصادق باشا العظم اجتهادا عظيما في اقناع السلطان بوجوب انشاء هذا الناشط منذ سنين فكان يأبى ذلك ويحتج بأن هذا يكون وسيلة لتداخل الانكليز في بلاد العرب فلما أعياه أمر ثورة اليمن اقتنع بأن اخضاع تلك الولاية وتمكين السلطة فيها من بعض فوائد ناشط العقبة من سكة الحديد فأمر به وأرسلت الجنود العثمانية الى العقبة لتمهيد العمل . فلما رأت انكلترا ذلك خافت من الدولة على مصر أضعاف ما كان يخاف منها السلطان على بلاد العرب . واعتقدت أنه ما دفع السلطان على هذا العمل الا ألمانيا الدائبة في مناهضة انكلترا وأنه لا يبعد أن يتفق السلطان مع عاهل الألمان على الزحف على مصر بعد وصول الناشط الى العقبة فأرادت بناء معاقل عسكرية هناك باسم مصر فكانت الدولة بالمرصاد فمنعت الجنود المصرية من البناء بالتهديد فأثارت انكلترا تعارض الدولة بأن جنودها احتلت نقطة مما كانت سمحت به لمصر من أرض سيناء واشتدت في ذلك بلسانها وبلسان الحكومة الخديوية التي تنطق بوحيها . على ان انكلترا قد غيرت حدود مصر في شبه جزيرة سيناء في الخرائط الجغرافية التي جددتها المدارس المصرية منذ بضع سنين ،

البدع والخرافات

والتقاليد والعادات

«سلطان الشياطين على عالم أزهري · ومخادعة دجال غوي»

نشر في مصر (إعلان) مطبوع عنوانه « أشهر الحوادث وأعظم الرجال — حادثة في الأزهر » يريد ناشره ان يشهر نفسه بالولاية والقدرة على اخراج الشياطين من الاجسام والبيوت ورأى ان إعلانه لا يقرأ الا اذا افتتحه بذكر الاستاذ الامام رضي الله عنه ولو بالكذب عليه لعلمه بأن الامة تقرأ كل ما يكتب عنه . ومن العجائب أن بعض الجرائد نشرت هذا الإعلان الضار وأقرته وانا ننشره وننكره وهو باختصار

«لا ريب ان الجامعة المصرية قد حضرت دروس حكيم الشرق وفيلسوف الاسلام الشيخ محمد عبده اذ كان [illegible] جهاراً والناس من حوله من ترك وعرب وعجم فضلا عما خالط ذلك من [illegible] يصيح بأعلى صوته بأن لا وجود للجن وكثيراً ما جاهر بهذا الانكار على رؤوس الأشهاد والملأ . محاجونه بالكتب المنزلة فما استطاعوا الرداً وكان ينسب ذلك الى الخيال والتصورات والاوهام وضرب لذلك جملة امثال ولكن لكل شرب وله شرب معلوم وكثير ما كان صاحب المؤيد واللواء والظاهر خاضوا معه في هذا الموضوع وأكثر الناس وافقه على هذا الأمر على أنه يوجد أكبر شاهد على وجود الجن وهو من خيرة العلماء الافاضل وعضو في ادارة الازهر ومن رجال الشريعة وامين الكتبخانه وهو الشيخ محمد حسنين ونحرير الخبر ان هذا الشيخ اشترى من مدة سنتين منزل بأم الغلام بجوار سيدنا الحسين فاعجبه ولكن رأى فيه في هذه الايام رجم أحجار فظن انه من الجيران فصنع صورمن خشب على السطوح فزاد الحال وعظم حتى ظهرت الجن في شكل قردة وخنازير وكلاب وقطط وصاروا ينقلون الكتب والملابس والقرش والمفاتيح من جيبه ويلقونها في الشارع على ان هذا الشيخ ترك أشغاله واشتغل بهذا الحادث حتى كان لا ينام من الليل دقيقة فشاع الخبر وذاع في مصر وضواحيها وأرسلت اليه جميع الاخوان جوابات بفوائد ووصفات وكثير من أعاظم مصر

ارسل عدة رجال مبهمين يدعون المعرفة فاجتهد الشيخ ابراهيم الطوبي الكتبي واستحضر جملة من المغاربة والسودانية فلم تحصل فائدة وكذلك حضر الشيخ محمد الرفاعي وقرأ وكتب ولكن ما أفاد وكذلك المغربي الذي في الخرنفش فلم تحصل فائدة حتى يئس حضرة الاستاذ وصمم على بيع المنزل أو هجره حتى يحكم الله واخيراً حضر بعض الاعيان واخبر الاستاذ بانه يوجد رجل ٠٠٠ ساح في الارض وفي بلاد الهند والسودان وصاحب علوم واسرار بل هو الولي في هذا الزمان واسم هذا الشخص ٠٠٠ فتقابل معه الشيخ وقص عليه ما وقع فتوجه الى منزل الشيخ وطلب سجادة وكان موجوداً وقت ذلك ٣٠٠ نفر وفرشها وسط المنزل وطلب طشت نحاس وكتب عليه وقرأ وقال احضر يامن هو موكل بالاذى وبعد ساعة رفعت الناس الطشت فخرج من تحته طيرة تشبه النسر سوداء وصوتت بصوت رفيع وتكلم معها واشار اليها فطارت والناس تنظر اليها وكل ذلك العمل كان بعد العصر ولما جاء الليل احضر جماعة من الجن وكل من حضر سمع كلامهم بالحرف [illegible] الاذى عن المنزل فانصرف وكانت فقدت أشياء من المنزل ذات قيمة فردها الجن كما كانت واخيراً سئل ٠٠٠ عن هذا الاذى فقال معناه ان هذا الامر يجب عليّ أن أضع له سور من حديد على انه لا يمكنني ان اطلع احداً عليه مهما كان ميله اليّ وقربه من فؤادي»

اهـ المراد منه وليس بعدما ذكرنا الا الغلوّ في شهرة صاحب الاسم المراد اشهاره بالكذب لمخادعة النساء والعوام بدعوى ان بيته مكتظ بالأمراء والافرنج ٠٠٠

قد ادعى هذا الدجال عدة دعاوي باطلة يعلم بها انه يتعمد الكذب ٠ (أولاها) أن الاستاذ الإمام اتخذ لنفسه أدحية في الأزهر كان يقرأ فيها دروسه يعني مكانا صغيرا كأفحوص القطاة والناس يعلمون انه كان يقرأ في أعظم رواق في الازهر (ثانيا) انه أنكر وجود الجن في دروسه جهرا ٠ وهذا كذب و بهتان بل اعترف في دروسه وكتبه بوجود الجن كما يعلم من حضر دروسه معنا ومن قرأ تفسير جزء عم من تأليفه أو تفسير المنار الذي نقتبس فيه دروسه التي كان يلقيها في الأزهر (ثالثا) ان العلماء حاجوه في ذلك (رابعا) ان المؤيد واللواء والظاهر خاضت معه في هذا الموضوع وكل ذلك كذب مبني على كذب (خامسها) ان أكثر الناس وافقوه على إنكار

الجن وهذا طعن بأكثر المسلمين وقذف لهم بالكفر والردة . وقد بلغنا عن الشيخ محمد حسين أنه يقول ان الحكاية أصلا ولكن ما نشر في الاعلان كله كذب وبهتان

صرح الاستاذ الامام في تفسير سورة الناس بأن الجن خلق خفي وقد قال الله تعالى في أبيهم إبليس (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وما ورد من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم الجن كما في حديث ابن مسعود في استماعهم القرآن قالوا إنه لا يعارض الآية لأنه من الخوارق وهي تأتي على خلاف سنة الله تعالى فهي من قبيل ما يسميه الحكام بالاستثناء . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم لم ير الجن عند ما استمعوا القرآن لأنه تعالى يقول له في أول سورة الجن (قل أوحي اليّ انه استمع نفر من الجن) فقد علم ذلك بالوحي لا بالرؤية . ولكن ما اختلف فيه عالمان من أهل الصحابة — ابن مسعود وابن عباس — هل كان معجزة النبي (ص) أم لا قد صار عند أولياء الشيطان من الامور المعتادة بزعمهم فهم يرون الجن [illegible] من شاؤا ، وما كانوا الا خادعين وما كان الاستاذ الامام لانكار دجلهم تأييدا للقرآن ونصحا للعوام

استدل الجاهل ناشر «الاعلان» على وجود الجن بحكاية الشيخ محمد حسين وما هذه الحكاية الا كأمثالها من الحكايات التي لا تحصى عند أهل الخرافات وعبدة الأوهام فكم من بيت كاده شياطين الإنس من أهله أو من غير أهله فعبثوا فيه وعاثوا في حنادس الظلمات أو من وراء الحجب والاستار فتوهم السخفاء ان عبثهم من عمل الجن وبلغوا من الكيد لمن أرادوا ما أرادوا

وقد اكتشف بعض أصحاب الذكاء والدهاء كثيرا من هذه الحيل الشيطانية فعلم ان منها ما كان من الجيران لسبب غرامي أو لسبب مالي وهو الطمع في شراء البيت رخيصا اذا خاف الناس من عفاريته ومنها ما كان من بعض نساء الدار وخوادمها ابتغاء تركها وسكنى غيرها أو احتيالا على الرجل الشرود ليأوي اليها . وقد كان من علماء الازهر من يحكى عنهم إخضاع الجن أو جعلهم تلاميذ لهم فهل صار للعفاريت والشياطين من السلطان على علماء الازهر أن يسلبوا راحتهم في بيوتهم في زمن قل فيه ظهور العفاريت لتحوت العوام اذ قلت الخرافات والاوهام ؟؟